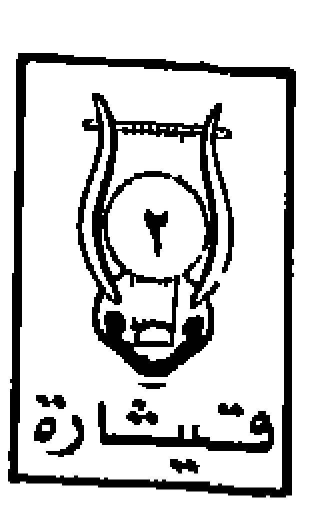

روايات الجيل الرومانسية
قيثارة
تأليف
مجدي صابر

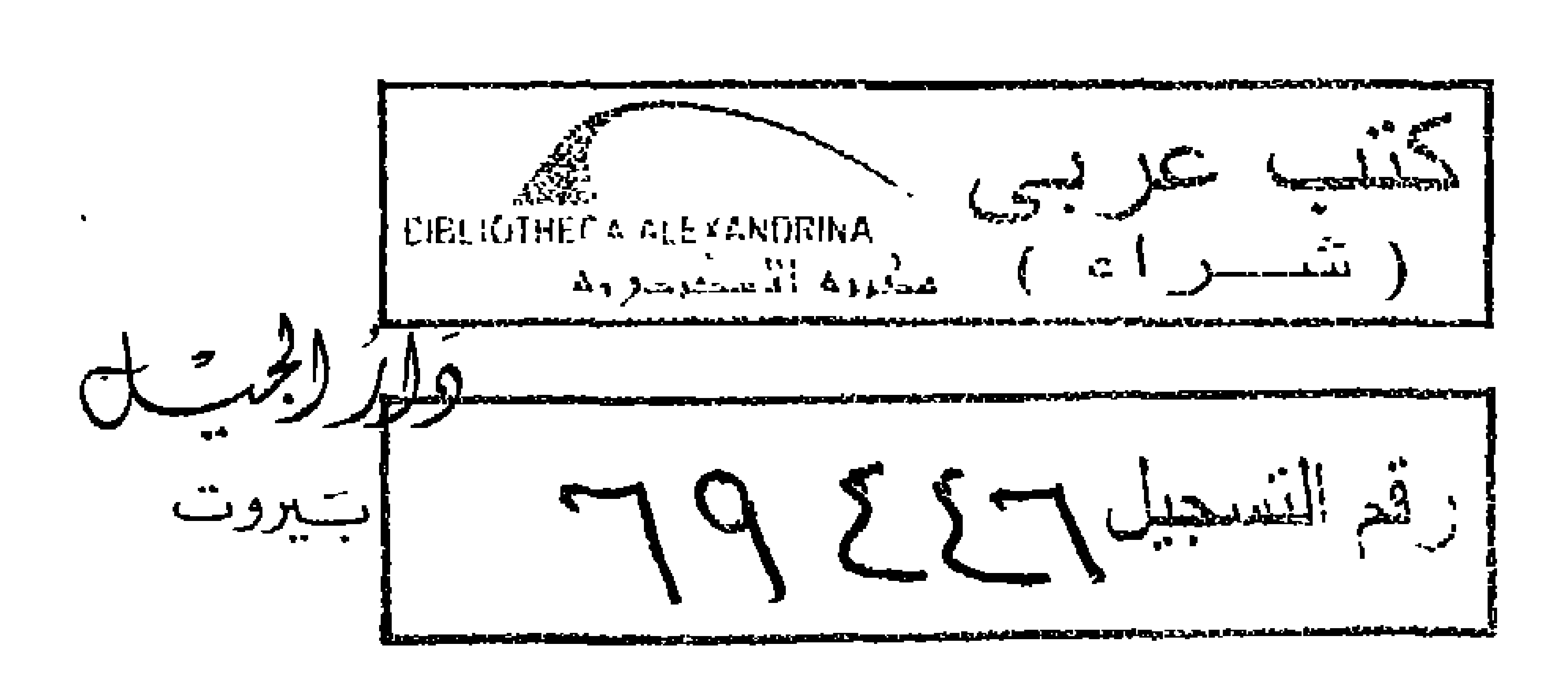


روايات الجيل الرومانسيّة



الحبّ والقدر

تأليف
مجدي صابر



دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م

« موعد مع القدر

صف السيارات طويل ممتد للأمام.. والإشارة الحمراء أصابت الجالسين فوق مقاعدهم خلف عجلات القيادة بالملل.. وقد بدا لون الإشارة الأحمر المستدير الملتمع، كأنه وجه غاضب يمنع ولا يمنح.

الجو حار مشبع بالرطوبة.. وحبات العرق ملتمعة فوق الجباه. وهبت نسمات باردة لطيفة من شاطئ البحر بددت شيئاً من الحر الثقيل .. غير أنها لم تخفف من ضيق الجالسين خلف عجلات القيادة.

والاسكندرية لأهلها عشق دائم.. لا يطيقون الابتعاد عنها طويلا.. يتحملون شتاء نواتها وأمطارها التي تغسل وجه مدينتهم، فتبدو كل فجر كعروس مجلوة.. أنار المطر حسنها.. وفي الصيف نادرا ما تعلو درجة الحرارة إلى القدر الذي يضايق سكانها وعشاقها..

وكان حر ذلك اليوم من الأيام النادرة في ارتفاع درجة الحرارة.. وكان مما يزيد الإحساس باشتداد الحرارة البقاء بداخل السيارة المسكونة بقائديها.. ومحركاتها تزأر استعداداً للحظة انطلاق قريبة.

وتغير وجه الإشارة.. وتبدّل لونها من الأحمر الغاضب، إلى الأخضر الباسم.. فبدأ خط العربات الطويل في التحرك..

وإلى اليسار ظهر المصطافون على الشاطئ العريض الممتد أمام محطة سيدي بشر.. وقد تمدد البعض فوق الرمال يأخذون حمام شمس.. والبعض الآخر ألقى بنفسه في الماء البارد يدفع عنه قيظ الحرارة.. أما الأغلبية فسكنت حركتها تحت المظلات العريضة.

مرة أخرى تحوّل اللون الأخضر إلى لون أحمر متجهم فوق عامود الإشارة العالي.

وأوقف ماجد صبري سيارته بفرامل حادة كي لا يتجاوز الإشارة التي تغيّر لونها فجأة.. كاد أن يعبر الإشارة.. وكان بإمكانه أن يفعلها غير عابئٍ باللون الأحمر كما فعلت سيارات أخرى بجواره.. ولكنه تعوّد دائماً أن يحترم القانون والنظام.. ولو كان مجرد إشارة حمراء يمكن تجاوزها

بلا ضرر.. إلا غرامة بضعة جنيهات.

أدار ماجد جهاز الكاسيت في سيارته الفاخرة.. كانت السيارة مرسيدس سوداء من أحدث طراز لا يقل ثمنها عن نصف مليون جنيه، وانساب صوت عبد الوهاب يحمل كلمات اغنيته الشهيرة « من غير ليه ».

كان ماجد يعشق هذه الأغنية ويؤمن بحتمية القدر، وأن حياة الإنسان وقدره ليست ملكا خالصاً له.. وأن إرادة القدر تفوز حتماً إذا تصادمت مع إرادة الإنسان في صراعها الأزلي.

عاش ماجد صبري طويلاً يصارع القدر.. وفي النهاية اكتشف أنه ما من قوة في العالم أقوى من القدر، ويمكنها تغيير مشيئته.

واستسلم ماجد صبري للقدر.. بالرغم من أنه لم يكن إنهزامياً في أي يوم من أيام حياته.. كان خضوعه للقدر تسليما وليس استسلاما.

روّض حياته على الرضى بكل ما يقابله.. اكتشف أن هذا الرضى يمنحه سلاماً وقناعة بكل ما هو حادث حوله.. ولا يمكنه تغييره..

وبسبب ذلك الشعور الطاغي القانع بما يرسمه القدر له، لم تكن هناك أدنى مضايقة له.. حتى وهو يخسر صفقة مقدارها مليوني جنيه.

جاء إلى الاسكندرية للدخول في عطاء توريد قطع غيار لإحدى الشركات.. وكان ثمن العطاء يزيد عن عشرة ملايين جنيه.. وربحه يتجاوز المليوني جنيه.. وكان يمكنه ككل مرة أن يرسل مدير حسابات شركته أو أحد موظفيها لحضور العطاء بدلاً من سفره من القاهرة إلى الاسكندرية لحضور العطاء بنفسه.

ولكنه هذه المرة تولدت لديه رغبة لا يدري لها سراً في الذهاب بنفسه إلى الاسكندرية. واستقل سيارته إلى عروس البحر الأبيض.. كأنه يتوقع أن يلاقي قدره في المدينة الجميلة.

ولكن النهار مضى بلا حوادث، غير حصول شركة أخرى منافسة على العطاء.. واندهاش الآخرين لحضور ماجد صبري، رئيس مجلس إدارة وصاحب أكبر شركة لقطع الغيار إلى الإسكندرية. وتساءل البعض هل هو في حاجة إلى هذه الصفقة بمثل هذا الإلحاح لكي يحضرها بنفسه..

هل هو بحاجة إلى مليوني جنيه.. ورأسمال شركته تجاوز الخمسين مليون جنيه ؟

ولكن كيف كان يمكنه أن يفسر لهم إيمانه بالقدر ؟

وها هو النهار قد انتصف.. وسيارته تكاد أن تأخذ طريقها عائدة إلى قاهرة الازدحام والحر، دون أن يصادف ماجد صبري، قدره الذي خيّل إليه أنه سيلاقيه في عروس البحر الساحرة.. اسكندرية المقدوني.

وضغط ماجد صبري على دواسة البنزين عندما تحول لون الإشارة إلى الأخضر، وتحركت سيارته الحديثة في رشاقة وكبرياء وسط بقية السيارات، مثل ملكة بين وصيفاتها وتوابعها.

وزادت سرعة السيارة بعدما انفتح الطريق لها.. وضغط ماجد على دواسة البنزين أكثر وهو يزيد سرعة سيارته.

وتوقف شريط الكاسيت عن الدوران.. ومد ماجد صبري أصابعه ليقلب الشريط إلى وجهه الآخر.. واستغرق ذلك جزءا قليلا من انتباهه.. وعندما أعاد بصره إلى الطريق دق قلبه سريعاً وبعنف شديد.

في تلك اللحظة فقط عرف أنه كان بالفعل على موعد

مع قدره في ذلك المكان.. وإن مجيئه إلى ذلك المكان لم يكن عبثاً أبداً.

وإلى الأمام كانت هناك فتاة في حوالي العشرين من عمرها.. وكانت تعبر الطريق من المكان الخطأ.. وقد ظهر عليها الارتباك الشديد.. والسيارات تمرُّ من حولها، وهي لشدة خوفها تسمرت في منتصف الطريق تماماً كأنما أصابها شلل. وعندما انتبه ماجد إلى وجودها المفاجئ، كان من المستحيل عليه تفادي صدمها.. وصرخت الفتاة واخفت وجهها في رعب، والمرسيدس السوداء تنقض عليها مثل وحش كاسر.

كان مصير الفتاة بين يدي ماجد صبري.. وحياتها أو موتها يتوقف على ما سيفعله في تلك اللحظة التالية.. بل في نفس اللحظة الحالية.. التي يقل زمنها عن غمضة عين، أو ارتعاشة جفن.

« الماضي يعود الآن »

ضغط ماجد على فرامل سيارته بكل ما لديه من قوة.. وأدار مقود السيارة في عنف شديد جهة اليسار، ومست السيارة الفتاة من الجنب وألقتها على الأرض.

ثم دوى صوت الاصطدام العنيف.

فمن الخلف وبسبب توقف المرسيدس المفاجئ اندفعت سيارة أخرى من الوراء لتصطدم بالمرسيدس في عنف شديد..

وبسبب شدة إنحراف المرسيدس جهة اليسار، والدفعة التي تلقتها من الخلف، اندفعت لتصطدم بسيارة أخرى بجوار الرصيف.

وتعالت أصوات الصرخات المفزوعة من كل مكان.. وشعر ماجد صبري بالصدمة عنيفة.. فقد اصطدم وجهه

بالمقود أمامه في عنف.. وخيل إليه أنه يكاد يفقد وعيه.. ولكنه تمالك إرادته في قوة قاهرة..

كان كل ما يشغله ويكاد أن يطبق على أنفاسه سؤال واحد.. هل أصاب الفتاة التي صدمها أي أذى.. وهل كان قدرها أن تكون نهاية حياتها على يديه ؟

حاول الخروج من سيارته.. ولكن الباب المجاور له كان قد بعج بشدة من الصدمة فاستحال عليه الخروج.. ولم يكن من شك أن السيارة قد أصابها تلف كبير..

وربما لا يكون هناك أمل في إصلاحها بعد ذلك.

ولكن ذلك كله لم تكن له أية أهمية لدى ماجد صبري.. وبعنف شديد دفع باب سيارته الآخر ليفتحه.

وانفتح الباب وقفز ماجد منه.. وكان أول ما وقعت عليه عيناه هو الفتاة التي صدمها.. وكانت قد تمكنت من الوقوف فوق ساقيها.. وراحت تنتحب بشدة وقد اخفت وجهها بين يديها.

كان صوت بكائها مؤلماً.. وهي ترتعش مثل ريشة في عاصفة.. وقد انسدل شعرها الأسود الفاحم حول وجهها.. وبدا بدنها الرقيق في فستانها الأصفر البسيط ضعيفا هشا.

كان من الواضح أن الفتاة سليمة لم يمسها أي أذى.. وتنفس ماجد الصعداء، كان هذا هو كل ما يهمه.. ومن يدري لولا سرعة تصرفه ماذا كان يمكن أن يحدث لتلك الفتاة.

وتدافع الناس من كل مكان صائحين غاضبين في الفتاة، خاصة صاحبي السيارتين المحطمتين، ودفعها أحدهما بعنف صارخا : أيتها المجنونة.. هل كنت تريدين الانتحار ؟

وصاح الآخر بها : عليك أن تدفعي ثمن هذه التلفيات والا حبستك.

ارتعدت الفتاة كأنما مسها تيار كهربائي، بعد أن تخيلت للحظة أنها يمكن أن تُسجن بسبب ما فعلته.

وأزاحت يديها عن وجهها في هلع.

وعلى الفور تراجع ماجد صبري إلى الوراء كأنه تلقى صفعة فوق وجهه.. صفعة من الماضي يزيد عمرها عن خمسة وعشرين عاما.. جاهد طويلا حتى ينساها ويمحو أثرها الدامي في قلبه.. ولكن ها هي الذكرى تتجسد أمامه كيانا حيا لا يمكن تصديقه، كأنما يؤكد القدر أنه لا قوة تغلبه في هذه الدنيا، مهما طال الزمن !

حملق ماجد في الفتاة بعينين مسمرتين عليها.. وهز رأسه رغما عنه هاتفاً في عدم تصديق : مستحيل.. لا يمكن.. كأنني أراها هي أمامي.. برغم كل هذه السنين ؟

كان للفتاة ملامح لا تخطئ العين حُسنها الطاغي أبداً.. وجهها مستدير وبشرتها بيضاء مشربة بحمرة محببة زادها الخوف فتنة ورواء.. عيناها واسعتان أكثر زرقة من موج البحر.. الأنف رقيق هش.. والشفتان ممتلئتان ناضجتان شهيتان بلون الكريز.. والذقن صغيرة مستديرة محفور بها طابع الحسن.. أما الجبهة عريضة متسعة تناثر الشعر الأسود حولها في اضطراب وبلا ترتيب، فزاد من جمال الوجه الرائع الحسن، المرتجف من الخوف والرهبة.

أحس ماجد بدوار.. لم يصدق عينيه.. تساند على سيارته المحطمة.. في تلك اللحظة فقط أدرك لماذا أرسله القدر إلى هذا المكان.

وتدافع الناس نحو الفتاة.. بعضهم يشتمها.. والآخرون يدفعونها بعنف.. وزوجة صاحب السيارة الأخرى المحطمة اندفعت نحوها لتجذبها من شعرها في توحّش، كأنها نمرة

هائجة انشبت مخالبها في فريسة مسكينة لا حول لها ولا قوة.

أفاق ماجد سريعا.. واخترق الجمع الحاشد بلا رحمة حول الفتاة، صاح فيهم جميعا : دعوها.. ومن أصابه ضرر بسببها سوف أعوضه عنه.

صاح الأول : سيارتي تحتاج إلى خمسمائة جنيه لإصلاحها.

وصرخ الثاني : ليس أقل من ألف جنيه أو سجن هذه الفتاة.

أخرج ماجد حقيبته من المقعد الخلفي لسيارته. فتحها وألقى لكل من صاحبي السيارتين رزمة بالف جنيه.. اختطافاها في نهم وهما يرمقانه في دهشة دون أن يفهما سر تصرفه.

وهتف أحد الواقفين هامساً لصديق له مشيرا نحو ماجد : لقد تحطمت وتلفت سيارة هذا الغبي التي تساوي الكثير.. ولكنه يوزع المال على الآخرين كما لو كان قد عثر عليه في مغارة « علي بابا ».

وقال الآخر ساخطاً : هذا هو حال من يركبون مثل

هذه السيارات.. لا قيمة للمال لديهم.. إن أغلبهم من اللصوص أو تجار الممنوعات.. وهم مثل لصوص المغارة بالفعل !

وأقبل ضابط شرطة يسأل عما حدث فزاد ارتعاب الفتاة وشحوب وجهها.. وواجهه ماجد قائلا : إنه مجرد حادث بسيط وقد تراضى جميع الأطراف، ولم تعد هناك أية مشكلة.

وهنا فقط تنبهت الفتاة إليه.. كانت تبدو ذاهلة مشوشة غائبة عن الوعي.. وفي تلك اللحظة فقط انتبهت إلى وجود ماجد.

حدقت فيه بامتنان هائل.. لم تكن تفهم سر تصرفه.. ولا معنى النظرات الغريبة التي راح يوجهها إليها.

وقدّرت أنه في الخمسين من عمره.. ممتلئ قليلاً. ملابسه تدل على أناقة وذوق واضحين. وجهه ناضر برغم سنه. عيناه واسعتان سوادهما عميق. له أنف قوي يدل على الإرادة.. وشفتاه مزمومتان كأنهما تعانيان من أسى قديم.. وكان له شعر أسود عميق اللون.. قد بدأ البياض

يغزوه على استيحاء.. وقد تحول شعر فوديه إلى اللون الأبيض الصريح.

همست الفتاة وهي لا تزال ترتعد نحو ماجد وكأنها تعتذر له : كنت مستعجلة وأردت عبور الطريق.. ولم أدر أن كل هذا سيحدث لي.. أرجوك سامحني.

تمالك ماجد نفسه وقال لها : لا عليك.. في كثير من الأحيان لا ننتبه إلى أخطائنا إلا بعد حدوثها.. وأحياناً أخرى تبدو اخطاؤنا كما لو كانت قدراً لا مفر منه.

قالت وكأنها توشك على البكاء : لقد تسببت في تحطيم سيارتك.

أجابها بابتسامة زادته وسامة : نجاتك تساوي عندي ألف سيارة من هذا النوع.. بل مليون سيارة.

وواجهها بنظرة صادقة.. واحتارت هي.. كان في عينيه وملامحه ونبرات صوته ما يؤكد بأنه يعرفها.. يعرفها منذ أعوام بعيدة.. وكانت هي أيضا تشعر بأنها تعرفه أيضا.. وأن وجوده كان مألوفاً لها من قبل.. بالرغم من أنها كانت تشاهده في تلك اللحظة للمرة الأولى في حياتها.

قال لها مقدماً نفسه : اسمي ماجد صبري.. صاحب شركة استيراد وتصدير دولية.

همست له : وأنا لوسي فتحي.. طالبة بالسنة النهائية بكلية آداب الاسكندرية وانهيت امتحاناتي منذ أيام قليلة وكنت ذاهبة إلى الـ..

وتوقفت كلماتها.. حدقت في ماجد كأنها تذكرت أنه شخص غريب عنها، وكأن ما كانت ستخبره به سر من أسرارها الشخصية لا يجوز الإفصاح عنه.. ثم لمعت الدموع في عينيها.. دموع أسى وحزن.

وهمست له : شكرا لك على كل ما فعلته لأجلي.. ومن المؤسف أنني لا أملك ما أرد به صنيعك.. ولكن الله سيجازيك خيراً.. تأكد من ذلك.

واسرعت تهرب من وجهه.. هتف يناديها، ولكنها عبرت الطريق غير عابئة بالسيارت الأخرى حولها.. كأنها تختار راضية الموت إذا ما حامت فوق رأسها مشكلة ما.

كاد يندفع خلفها لولا أن أوقفته سرينة سيارة قادمة كادت تصدمه.. قفز للوراء.. وتعالى سباب سائق السيارة نحوه.

أطلق عينيه خلف الفتاة في الإتجاه الذي هربت إليه.. ولكن.. لم يكن لها أي أثر في المكان حوله.

وأفاق ماجد ذاهلا كأنها كانت مجرد طيف لا وجود له في عالم الواقع المادي.. طيف تراءى له في لحظة خاطفة كأنها غمضة عين.. ثم اختفى فجأة كما ظهر فجأة.

وكان هذا هو نفس ما حدث له.. منذ خمسة وعشرين عاما..

وكان طيفه القديم يحمل نفس الملامح بدرجة تطابق مذهلة.. نفس الملامح.. نفس التكوين.. نفس الرقة.. نفس الصوت.. نفس النظرة من العينين والأسى الواضح في تفاصيل الوجه.

ولكن.. كان من المستحيل أن تكون هي نفس الإنسانة.. فقد كان يفصل الاثنتين خمسة وعشرين عاما.. هي نصف عمره بالضبط، وكما كان من المستحيل أن تكون الإثنتان شخصاً واحداً.. كان من المستحيل أيضا أن تكونا اثنتين.. تطابقت تفاصيلهما إلى هذا الحد المذهل.

ولكن.. هل كان القدر يوماً ما عاجزاً عن أي فعل، مهما بدا غريبا ومستحيل الحدوث ؟

« الخوف من المجهول »

كان ماجد يشعر بإرهاق شديد وهو يخطو داخل فيلته الأنيقة في حي المعادي الراقي.

كان قد اتصل ببعض موظفي شركته فحضروا إلى الاسكندرية على عجل بسيارة أخرى، وقاموا بجر المرسيدس المصابة إلى القاهرة.. واستأجر ماجد سيارة عادت به إلى القاهرة.

وطوال الطريق كان يشعر بصداع شديد في رأسه، والذكرى تدق فيها كأنها المعاول. وما أن خطا إلى الصالة الداخلية في فيلته حتى هرعت نحوه نادية زوجته، وهتفت في ذعر وخوف : ماجد.. هل أصابك شيء يا حبيبي ؟

تأملها ماجد كأنه يراها لأول مرة.. كانت كما رآها المرة الأولى منذ عشر سنوات واختارها زوجة له.. هادئة

الملامح متناسقة التكوين، في تفاصيل وجهها وعينيها سكون وراحة.. ويطل من عينيها صدق خوفها عليه.

وأكملت نادية في لهفة : عندما تأخرت في العودة على الغذاء اتصلت بالشركة وعرفت بخبر الحادثة فأصابني خوف شديد.

أجابها يطمئنها : إنها حادثة بسيطة.. بعض التلفيات فقط في السيارة.

همست في راحة : الحمد لله.. طلبت منك ألا تذهب إلى الإسكندرية اليوم ولكنك لم تسمع كلامي.. كان قلبي منقبضاً منذ الصباح بدون أن أعرف السبب.

قال يغير مسار الحديث : كيف حال عمر ؟

ـــ إنه نائم في حجرته.

خطا إلى داخل حجرة صغيره الذي لم يتجاوز السنوات الثلاث.. وكان وحيده عمر راقداً في فراشه بالحجرة التي امتلأت باللعب في كل أركانها.. ولكن.. هل كانت اللعب تستطيع أن تمنح طفلاً السعادة، وقد ولد بقصور خطير في قلبه لا يمكن علاجه جراحيا إلا بعد أن يشتد عود الطفل ويتجاوز الست أو السبع سنوات من عمره ؟ ولكن..

هل سيتيح القدر لطفله أن يتغلب على مصاعب قلبه العليل.. ويحيا إلى أن يصل إلى هذه السن، وهو يصارع المجهول في كل لحظة ؟

ست سنوات وهو ينتظر مجيء الطفل الذي حلم بأنه سيصير قطعة منه.. سيجعله يرث مملكته.. يتمتع بكل ماله.. يصير له كل ما يريد في هذا العالم.. يسعد الابن بما حرم منه الأب باقي طفولته.

ومن أجل هذا الطفل عاش الأب سنوات طويلة من عمره يجمع المال بدون أن يفكر في نفسه لحظة أو يحاول التقاط أنفاسه.. كان يشعر بأنه في صراع مع القدر.. ذلك القدر الذي عانده طويلاً. وكان ماجد يشعر أن الحماية الحقيقية له من غوائل القدر هي المال. المال ذلك القوة الجبارة التي تحمي الإنسان من عبث القدر ولهوه بمصائر الناس.

وتكدس المال لديه.. وعندما جاء طفله.. جاء عليلاً مريضاً لا تفلح كل أموال العالم في شفائه أو إدخال السعادة إلى قلبه العليل.

كل أموال العالم لا يمكنها أن تمنحه القدرة حتى على

الضحك واللهو ككل الأطفال الآخرين.. الذين لا يملك آباؤهم شيئا من المال.. والذين هم محرومون من أشياء كثيرة لا حصر لها.. ولكنهم يتمتعون بقلوب سليمة تمنحهم الصحة والقوة بلا مال كثير.

ما أعجب ذلك القدر..

ومرة أخرى أيقن ماجد أنه ما من انسان قادر على تحدي القدر.. أو فرض ارادته عليه..

وهكذا تعلّم كيف يكون تسليمه للقدر.

طبع قبلة فوق جبهة طفله الصغير الشاحب الوجه..

ودخلت الحجرة الممرضة الإنجليزية التي تقيم بصفة مستمرة مع طفله.. والمدرّبة بكفاءة لمواجهة أي خطر يمكن أن يواجهه الطفل المريض.. وحجرتها الملحقة بحجرة صغيرة مزودة بأجهزة تنفس صناعي وأجهزة مساعدة أخرى كلّفت الكثير جدا.

وقفت الممرضة تنظر إلى والد الطفل في صمت..

وهمس يسألها في حزن : كيف كان حاله اليوم ؟

أجابته : أصابه بعض الإجهاد اليوم بسبب إصراره على السير في حديقة الفيلا ليتفحص ورودها التي تفتحت اليوم

فأعطيته جرعة من الأكسجين لمساعدة قلبه.

ألقى ماجد نظرة أخيرة على طفله، وأغمض عينيه متألما.. ثم فتحهما على لمسة رقيقة من أصابع زوجته، كانت تمسح دمعة كادت تسقط من عينيه.

همست تطمئنه : أنه بخير.. فهي نوبة ألم معتادة.

أومأ برأسه في صمت، وغادرا الحجرة.. وقالت نادية تسأله في حنان : هل أعد لك العشاء ؟

أجابها : لا رغبة لدي في الطعام.. سأذهب إلى حجرتي ولا أريد أن يزعجني أحد.

واتجه نحو حجرته.. وراقبته نادية في ألم، وشاهدته وهو يختفي في حجرته ويغيب عنها بقامته الممشوقة. وصدمها الباب الذي انغلق خلفه.. في إعلان صريح بأنه لا يريد أن يشاهد إنساناً.. ولو كانت هي نفسها.. زوجته وأم طفله.

تهالكت نادية على أقرب مقعد بجوارها.. وتعلق بصرها بصورة زفافها المصلوبة على الحائط أمامها.

في الصورة كانت تبدو سعيدة متألقة.. وكان ماجد

يبدو بجوارها خاليا من المشاعر.. سعادته ناقصة وإرادته غير مكتملة.

منذ شاهدته في المرة الأولى منذ أكثر من عشر سنوات في حفل زواج إحدى قريباتها.. منذ تلك اللحظة أحبته.. عشقته إلى درجة الوله.. انطبعت صورته في عقلها لا تفارقها أبدا.. تمنته زوجاً وحبيباً ورجلاً يملأ عليها كل حياتها وأيامها القادمة.

وبدأت تتقرب إليه في كل مناسبة تجمعها سوياً.. بحكم أنهما ينتميان إلى عائلة واحدة.. وإن كانت قرابتهما بعيدة فيها. كانت تعرف أنه كرجل أعمال لا متسع لديه لحضور الحفلات.. وأنه يبني نفسه بإصرار وإرادة قوية، بعد عشر سنوات قضاها في بلاد النفط.. وعاد بثروة صغيرة راح يستثمرها بذكاء حتى صار من رجال الأعمال والملايين.

وعندما تعرفت عليه في أحدى حفلات الأسرة.. أحست بسعادتها تكتمل عندما وقف يتحدث معها.. ولكن شيئاً ما كان يعكر عليها صفو هذه اللحظات السعيدة.. كانت تشعر انه لا يقف أمامها بكامل ذاته.. هناك جزء منه غائب عنه..

ووجوده أمامها كان ناقص الحضور.. كأنه يحلق في سموات أخرى.. ولكنها تعلقت به أكثر.. وشعرت أنه بدأ يرتاح إليها.. وكادت تطير من السعادة عندما طلب يدها للزواج.. وكان ذلك مفاجأة كاملة بالنسبة لها، فأعلنت موافقتها في الحال.

وعندما ضمتهما حجرة واحدة.. شعرت أن إحساسها الأول لم يكن خاطئاً.. كان هناك بالفعل جزء غائب منه.. في أحيان كثيرة تشعر أنه غير موجود أمامها.. بالرغم من كيانه الكامل في مرمى بصرها.. تشعر بأن عينيه تجوبان دنيا أخرى.. بالرغم من أركان الحجرة المغلقة التي تضمهما معاً.. تضم جسديهما معا.. ولكن روحه كانت في عالم آخر.. لا تقف الجدران عائقا أمام سبيل انطلاقها.

وتألمت بسبب ذلك.. شعرت أنها ليست كل دنياه.. هناك شيء آخر يحتل جزءا من كيانه وعالمه.. ولم يكن من الصعب أن تدرك أن هذا الشيء الآخر لا يمكن أن يكون إلا إمرأة أخرى.. أنثى غيرها.

ولكن من هي.. أين هي.. ما صلتها بزوجها.. كل هذه كانت أسئلة تضطرب بداخلها دون أن تجد لها إجابة

محددة.. ودون أن تجرؤ على سؤال زوجها عنها.

وكان من المؤكد لها أن هذه المرأة الأخرى موجودة في خاطر زوجها فقط.. وأنه ليس لها وجود مادي في حياته.. لعلها تكون مجرد ذكرى.. طيف.. خيال.. ولكنها ليست كائناً متجسداً في حياته.. كياناً ملموساً يمكن أن ينتزعه منها يوماً من الأيام.

وسامحت زوجها ولم تغضب منه.. وتقبلت الأمر في تفهّم.. وأرادت أن يقترب منها أكثر بابن يجمعهما.. ولكن مجيء طفلهما تأخر عدة سنوات طويلة.

وعندما شعرت بحركة الطفل في أحشائها.. أصابتها سعادة هائلة.. فها هو الرباط الأقوى الذي سيجمعها بزوجها إلى الأبد.. ها هو الامتزاج الكامل بينهما.

وشعرت بأن زوجها يكاد يطير من السعادة انتظاراً لمجيء هذا الطفل.. شعرت أنه يقترب منها أكثر فأكثر.. وأن وجود الأخرى صار أشبه بغمامة ضبابية ستبددها أشعة الشمس التي ستشرق بعد حين.. شمس وليدها القادم.

ولكن طفلهما جاء مريضاً عليلاً مهدداً بالموت في أي لحظة.

وأصابها حزن قاتل مرتين.. حزن علي طفلها الذي حرمته الدنيا مما وهبته للأطفال الآخرين.. وحزن على زوجها الذي شعرت أنه بدأ يتباعد عنها ويعود إلى عالمه الخاص.. كأنه يلومها.. كأنه يعدها مسئولة عما حدث.. كأنه يلتمس العذر لكي يعود إلى طيفه القديم وذكراه الساكنة في ذاكرة قلبه. بل أنها في بعض الأحيان كانت تشعر أنه يكره ذلك الطفل، لا يريده، وكانت أيام كثيرة تمضي دون أن يسأل عنه أو يراه.. بالرغم من كل اللعب ووسائل العناية والعلاج التي وفرها لطفله ؟

ولكن ما حيلتها فيما حدث.. ما ذنبها وقد كانت صدمتها وحزنها أشد وأقسى ؟

واليوم شعرت بالخوف على زوجها.. خوف لا تدري له سببا.. كانت تريد أن تمنعه من مغادرة المنزل ولكنها لم تستطع.. بل لم تجرؤ على مصارحته بمخاوفها.

كانت تخشى أن يصيبه مكروه.. وعندما شاهدته يعود معافياً أصابتها الراحة وحمدت الله.. ولكن سعادتها سرعان ما تبددت عندما لمحت في عينيّ زوجها الطيفِ القديم وهو يتجدد ويحيا من جديد.

شعرت بأن ذلك الطيف الذي كان مجرد ذكرى لزوجها، لم يعد كذلك.. عيناه أفصحت عن أن ذلك الطيف قد صار بالنسبة له كياناً مادياً.. كياناً قد يهددها في سعادتها واستقرارها.. وأن خوفها المجهول قد تحقق بصورة أخرى.

ولم تكن تملك ما تدفع به هذ الخوف غير البكاء.. كانت دائما تلوذ بدموعها عندما تشعر أنها أسيرة في قبضة المجهول.

وماذا كان في استطاعتها أن تفعل.. وهناك باب موصد بينها وبين زوجها غير مسموح لها بالاقتراب منه.. أو تجاوزه، وهي تشعر أن قلبه قد بدأت أخرى تحتله.. بعد أن كانت تعيش في ذاكرته فقط ؟

الطيف.. الحبيب

تطلع ماجد ببصره من شرفة نافذته المفتوحة إلى الظلام الحالك في الخارج.. وظهرت من بعيد رؤوس جبال المقطم كأنها هامات مردة قد رقدت في أماكنها وفارقتها الرغبة في الحياة.

كان لا يزال مذهولاً، لا يكاد يصدق أحداث يومه، وتساءل للمرة الألف، هل كانت تلك الفتاة التي كاد يصدمها على شاطئ الإسكندرية.. هل كانت حقيقة وليس وهماً أو خيالاً صوّره له عقله المتعب المكدود الباحث عن شاطئ الراحة، بعد طول إبحار ومعاناة ؟

خمسة وعشرون عاماً وهو يهرب من هذا الطيف.. يحاول أن ينساه.. وفجأة يقفز إلى حياته كياناً حقيقياً متجسداً بصورة أقرب إلى الاستحالة ؟

لماذا يصر القدر على التلاعب به بمثل هذه الطريقة ؟

منذ خمسة وعشرين عاماً تخرج من كلية التجارة بعد رحلة حياة قاسية. توفي والده وهو صغير. وكان عليه الإنفاق على نفسه طوال سنوات دراسته. فأخذ يعمل صباحاً ويذاكر ليلاً تأويه حجرة صغيرة ضيقة لا راحة فيها.

ولكنه واصل اجتهاده حتى دخل الجامعة وتخرج فيها.. والتحق بالعمل في مصلحة الضرائب كمأمور للضرائب.. وهناك تعرف على سلوى عبد الحميد.. التي التحقت بالعمل في نفس المكان بعده بأيام قليلة.

ومنذ اللحظة الأولى التي شاهدها فيها شعر أنه وقع في هواها.. صار أسير حبها منذ أول نظرة. أحياناً يكون الحب قدراً لا فكاك منه.. وكان حبه لسلوى قدراً غير قابل للمناقشة أو التفسير. وغرق في حبه لها.. صارت هي كل عالمه.. لا يستقبل يومه إلا بها.. ولا يودعه إلا بنظرة منها.. وحتى أحلامه لم يكن يشغلها غيرها.

صارت هي كل عالمه الذي يعيش فيه ويتنفسه.. أصبحت هي كل آماله وأحلامه وعالمه.

ولكنها لم تكن تشعر به أو تحس بوجوده.. كانت سلوى مغلقة على عالمها.. في عينيها طابع الأسى والحزن..

عرف من الآخرين أنها يتيمة الأبوين.. تربت لدى بعض أقاربها الذين لم يكونوا أفضل عليها من الغرباء.. وكانت أحزانها تمنعها من أن تنتبه إلى وجود حبيب لها.. ولو كان على بعد خطوات منها. كان قلبها المثقل بالأسى عاجزاً عن أن يتلمس مشاعر الحب التي أطلقها قلبه باتجاهه.

كان ماجد يحس بمشاعرها.. جرب تلك المشاعر من قبل.. مشاعر اليتم والحرمان من الأبوين.. مشاعر الغربة عن الدنيا والناس ونحن نعيش بهم ومعهم.. كان يشعر أن ظروفها الخاصة تجعلها قريبة منه.. حبيبة إلى قلبه.. يرغب أن يعوضها سنوات حرمانها.. وأن تزيح عن قلبه سنوات الغربة والآلام..

وتردد ماجد في أن يعترف بحبه لها.. أن يصارحها برغبته في الزواج منها.. وقضى ليلة يناقش فيها الأمر مع نفسه.. وظل أرقاً مسهداً طوال الليل يتقلب فوق جمر أفكاره.. كان يخشى أن ترفضه.. ألا تشعر بحبه.. ولأجل ذلك تردد طويلا في مصارحتها بحبه لها.. كان يعتبر رفضها له موتا لحياته وقلبه.. ولأجل ذلك تردد طويلا.. متحملا نار الحرمان..

واستقر قراره على مصارحتها بحبه.. وطلب يدها في الصباح.

ولكنها في ذلك اليوم لم تذهب إلى العمل.. وخشي أن تكون مريضة.. ولكنه خجل من أن يذهب للسؤال عنها في بيتها والاطمئنان عليها.

وقضى أيام غيابها من العمل غائباً عن الدنيا.. لا طعام يهنأ به ولا راحة تغزو قلبه.. ولا أحلام تريح عقله المتعب المكدود.

وعندما طال غيابها لأسبوع كامل اتخذ قراره بأن يذهب للسؤال عنها، وطلب يدها من أقاربها الذين تعيش عندهم مهما كانت نتائج عمله.

وهناك أصابته الصدمة التي زلزلته.. وعرف أن حبيبته سلوى تزوجت منذ أيام قليلة، وأنها سافرت بالأمس فقط مع زوجها إلى استراليا.. في رحلة بلا عودة.

كان الزوج يكبرها بثلاثين عاما.. وكان يرغب في فتاة من بني وطنه تشاركه غربته وأمواله في تلك البلاد البعيدة.. فتاة صغيرة وحيدة تكون مثل ثمرة بلا أصل ولا جذور، يعيد زرعها في بلاد بعيدة.. فيكون هو أرضها وجذورها وأصلها وكل دنياها. ولم يكن صعبا على ماجد أن يدرك

أن سفرها كان للهرب من واقعها المؤلم، في دنيا تعتبر نفسها ليست منها.. وأقارب هم غرباء بالنسبة لها. ولم يكن لديه شك أيضا في أن أقاربها قد ضغطوا عليها للزواج من ذلك الكهل.. وأنهم قبضوا الثمن مقدما ليسمحوا له بالزواج منها.. وهكذا انتقلت سلوى من غربة ضيقة، إلى غربة أكبر وأوسع.. وأحزان لا تحدها حدود.

وعاد ماجد كالميت.. مقتول الروح مذبوح الجسد مشلول الفكر.

لا يصدق أن حبيبته قد ضاعت منه للأبد.. وأنها صارت على بعد آلاف الأميال عنه، تعيش زوجة لكهل لا يجمعها معه غير ورقة بإمضاء إثنين من الشهود. وقد كان بإمكانه أن يتزوجها، فقط لولا تردده الطويل.. كان بإمكانه أن يتوج حبه بنهاية سعيدة.. فقط لو كان أكثر إرادة.

وأدرك أن هذا هو قدره..

وسقط مريضا لشهور عديدة.. وهزلت صحته ونحل جسده.. وصار وعيه أطياف رؤاها.. تتجسد أمام عينيه بلا رحمة لتزيد من طعنات الحزن في قلبه.. لام نفسه

ألف مرة.. وبكى ألف مرة.. وأوشك أن يموت حزناً عليها ألف مرة.

وجاهد أن ينسى بلا فائدة.

وعندما استرد بعضاً من صحته قرر السفر إلى الخليج.. كان يريد أن يهرب من ذلك الطيف الذي يملأ عليه عالمه..

وقضى عشرة أعوام في الغربة.. ثم عاد بأموال كثيرة.. وبنفس الطيف الساكن في قلبه وذاكرته.. ولم تفلح سنون الغربة في محوه وإزالة معالمه.

وبدأت أعماله تتوسع في القاهرة.. وأراد أن يخرج من ذكراه القديمة بأن يختار زوجة له.. وبدأ يحضر حفلات الأقارب والأصدقاء بحثا عن تلك الزوجة، علها تداوي قلبه العليل التائه في بحار لا شواطئ لها.

وتعرّف على نادية.. رأى فيها مواصفات الزوجة المناسبة.. لم يشعر بحب لها.. وإنما اجتذبته هي بحبها له.. كأنها المرساة التي أوقفت اندفاع سفينة حياته التي تبحر بلا هدف، وأدرك أن القدر هو الذي اختارها له.. فتزوجها لينسى طيفه القديم.. ولأنه أدرك أن إرادة القدر أقوى من أن يعترضها.

وعندما تأخر مجيء طفله.. أدرك أن القدر يمارس معه لعبة ما فراح يحصن نفسه بالمال.. ولكنه لم يكن يظن أن القدر سيكون بمثل تلك القسوة.. ليهديه طفلاً مريضاً لا يقوى على ممارسة الحياة.. بعد أن حرمه من أشياء كثيرة عزيزة عليه. وشعر بكراهية لهذا القدر.. وبدأ يتباعد عن كل الأشياء حوله.. عن عمله.. عن زوجته.. حتى عن طفله المريض.. وكان يتعمد أن تمضي أيام طويلة بدون أن يراه.. حتى لا يتجسد أمام عينيه عجزه في أن يفعل شيئاً لإنقاذ هذا الإبن، من براثن مرضه. كان يشعر أنه غريب عن هذا العالم، الذي يصر على معاندته وتحطيم كل أحلامه. وتعلم أن يستسلم للقدر.. يتركه يسيّر حياته كما يشاء.. تعوّد ألا تكون له إرادة خاصة في إختياره.. ما دام أن هناك إرادة أخرى تفرض جبروتها وسطوتها على إرادته.

كان يعلم أن القدر أقوى منه.. ولذلك أصر على السفر إلى الاسكندرية ذلك الصباح وهو يشعر أنه مُساق إلى قدره.

وها هو يتأكد أن القدر لا يزال يمارس معه لعبته الغريبة.. وأن ظهور لوسي المفاجئ في حياته لا يمكن أن يكون عبثا.

كأنه عاد إلى الوراء خمسة وعشرون عاما.. كأنه يرى

حبيبته الأولى أمام عينيه.. كأن الطيف القديم قد تجسد أمامه في كيان مادي متكامل.

وانتبه ماجد إلى صلة مذهلة بين حبيبته الأولى.. ولوسي.. فحتى حروف الاسمين يتطابقان.. فاسم حبيبته الأولى سلوى.. واسم تلك الفتاة التي كاد يصدمها اليوم هو لوسي.. نفس الحروف الأربعة وإن اختلف ترتيبهما.. فهل يمكن أن تكون تلك صدفة، لم ترتبها أصابع القدر الماهرة ؟

هل أراد القدر أن يعبث به مرة أخرى.. أم هل أراد أن يعوضه عن حبه الضائع ؟

وتقلصت قبضة ماجد في غضب مكبوت هادر.. وارتعدت أصابعه من عنف قبضته كأنه يلوح بها في وجه القدر.. الذي يبدو وكأنه يمارس معه لعبة جديدة غير مفهومة.

ودق قلبه عنيفاً هادراً.. شعر كأن حبه القديم يستيقظ من سباته الطويل، ويتجدد بفوران كالبركان في صدره.. كأنما نفس مشاعره القديمة قد استيقظت في صدره.. حية.. فوارة.

واتخذ ماجد قراره في نفس اللحظة، لن يترك القدر يعبث به بعد الآن، ولن يترك حبه يفلت من بين أصابعه مرة أخرى، ولو حارب العالم كله في سبيل ذلك.

« سؤال.. بلا إجابة »

في الصباح لم يذهب ماجد إلى عمله.. بل استقل سيارته الثانية إلى الإسكندرية..

كان قد حدد هدفه.. وكان من المستحيل أن يتراجع عنه، ولو اتحدت كل قوى العالم ضده.

وقاد السيارة إلى مدينة الطالبات.. كان لديه إحساس قوي بأنه سيجد فتاته مقيمة في هذا المكان.. وأنها لا تسكن مكاناً آخر في المدينة الساحلية الجميلة.

وراح المسئول يقلب في أوراق الطالبات، ثم توقف أمام اسم لوسي فتحي وقال مقطباً : لقد كانت تقيم في المدينة حتى أمس.. ولكنها غادرتها في المساء بعد أن انتهت إقامتها هنا بسبب انتهاء دراستها.. بل إنها لم تسدد مصروفات اقامتها الشهور الأخيرة.

ودق قلب ماجد بعنف وهتف يسأل الرجل : ألا تعرف أين ذهبت ؟

هز الرجل رأسه نافيا بلا أسف.

وأصاب ماجد غضب مؤلم.. وشعر كأن القدر يضحك ساخراً أمامه.. ها هو قد وصل متأخراً كالعادة.. ولكنه لم ييأس هذه المرة.. كان لديه إحساس بأن لوسي لا تزال في الإسكندرية. وكانت اقامتها في مدينة للطالبات يعني أنه ليس لها أقارب في الإسكندرية، وأنها لا تملك سكنا خاصا لها في المدينة.. وكان معنى خروجها من المدينة الجامعية دون أن تسدد مصاريف إقامتها أنها لا تملك هذه المصاريف.. وأنها لن تذهب بعيدا بسبب ذلك. فأين يمكن أن تقيم فتاة لا تملك نقوداً في مدينة غريبة عنها.. إنها لن تقيم في فندق على أي حال.

وبدأ ماجد بحثه في البنسيونات العديدة المنتشرة في المدينة.. يراوده أمل خفي أنه سيعثر على ضالته في إحداها.

وعثر عليها بالفعل.. اكتشف أنها تقيم في بنسيون تملكه سيدة أرمنية عجوز في ميامي.. وأن اقامتها بدأت من مساء الأمس منذ غادرت المدينة الجامعية.

وعرف أيضا أنها لم تدفع أي مبلغ مقدماً، وأن صاحبة البنسيون أشفقت عليها بعد أن وعدتها لوسي بأن تسدد لها الإيجار بعد أن تقبض أجرها من العمل الذي ستتسلمه في اليوم التالي.

واستطاع ماجد أن يحصل على عنوان ذلك العمل بعد أن دس خمسين جنيهاً في يد صاحبة البنسيون, العجوز، التي سألته في شك : ولكنك لم تخبرني من أنت.. ولماذا تسأل عن لوسي بهذا الإلحاح ؟

فأجابها بملامح غامضة : إنني قريبها.

قالت المرأة محتجة: ولكنها أخبرتني أنه ليس لديها أقارب هنا و.. ولم تكمل عبارتها لأن ماجد كان قد غادر المكان على عجل.

وانطلق إلى محطة الرمل.. وتوقف أمام أحد محلات السوبرماركت الكبيرة أمام المحطة مباشرة.. وأوقف سيارته الفاخرة بجوار المحل.. ثم اتجه داخلا.

ولمحها منذ النظرة الأولى.. ودق قلبه بعنف وصعدت الدماء إلى وجهه، كأنه مراهق يمارس تجربة حب لأول مرة في حياته.

وكانت لوسي منهمكة في ترتيب بعض علب البقالة والعصائر.. وقد راح الزبائن يتجولون في المكان وينتقون ما يريدون في عربات صغيرة يدفعونها بأيديهم.

وأمسك ماجد بإحدى العربات، وبدأ يجمع كل ما يقابله من أصناف ويضعه فيها.. ثم اقترب من لوسي وتوقف أمامها.

ورفعت هي عينيها إليه.. وما أن ملأت تفاصيل وجهه عينيها حتى تذكرته على الفور، وبدا عليها ذعر مفاجئ وتراجعت إلى الوراء خطوة.

هتف بها يطمئنها : لا تخشي شيئا.. إنني لم آت لأتقاضى تعويضا عن حادث الأمس.

ارتجفت شفتاها وهي تسأله : وما الذي أتى بك إلى هنا ؟

أجاب في لا مبالاة : إنني مجرد زبون عادي كما ترين.. والمحل مفتوح للجميع.

رمقته لوسي بنظرة شك وتراجعت مرة أخرى إلى الوراء دون أن ترفع عينيها عنه.. ثم تشاغلت بعملها مرة أخرى وقد شملها اضطراب شديد.. ووضح لماجد أنها تبذل

مجهودا كبيرا لتسيطر على أفعالها.

أخذ ماجد نفسا عميقا.. كان يرغب في أن يقف أمامها يتطلع إلى ملامحها ويملأ بها قلبه بقية عمره.. وتمنى لو أن عقارب الزمن قد تتوقف أمام تلك اللحظة.

ولكنه زحف بعربته الصغيرة خارجاً من المكان، بعد أن دفع ثمن مشترياته الكثيرة التي احتلت فراغ حقيبة سيارته الكبيرة. واتجه بالسيارة إلى البنسيون حاملا مشترياته طالبا من الأرمنية العجوز أن تخبر لوسي أن أحد أقاربها قد أتى لها بهذه الأشياء، فأطاعته المرأة في دهشة.

ولم يعد إلى القاهرة آخر اليوم.. بل هاتف سكرتيره الخاص طالبا منه أن يتصل بزوجته ليخبرها أنه سيقضي الليلة في الإسكندرية لبعض الأعمال العاجلة.

وقضى المساء سائراً على الشاطئ وقد راحت الرياح تعبث بخصلات شعره، ورذاذ الماء يسقط فوق وجهه..

وعاد إلى الجناح الذي استأجره في الفندق الفاخر المطل على شاطئ البحر.. وقرابة الفجر استطاع أن ينام بالكاد بضع ساعات.

واستيقظ وهو يشعر بنشاط شديد.. وبحماس ابن العشرين.

واتجه من فوره إلى السوبرماركت مرة أخرى.. وما أن خطا بداخله حتى وجدها أمامه..

كانت عيناها مصوبة نحو باب المحل.. كأنها كانت تتوقع مجيئه.. ولم يكن من شك في أنها كانت حائرة من سر تصرفاته الغريبة.. وأنها تود أن تستفسر منه عن أشياء كثيرة، ولكن، كان من المؤكد أنها سعيدة بمشترياته لها، والتي وفرت لها الكثير من أوجه انفاقها لمرتبها الصغير. ولكنه لم يتجه إليها أو يتحدث معها.. ومثل الأمس راح ينتقي كل ما يصادفه من علب وأكياس ويضعها في عربته الصغيرة وهي تراقبه بعينيها الواسعتين في فضول وحيرة.

وتوقف أمام عدد من علب العصائر المستوردة.. واحتار أي نوع منها تفضله، ونظر إليها في تساؤل.. فارتسمت ابتسامة صغيرة فوق شفتيها، كأنها أدركت سبب حيرته، ولكنها لم تمنحه أي رد وعادت تتشاغل بعملها.. فما كان منه إلا أن وضع كل أصناف العصائر في عربته الصغيرة !

وخرج من المحل وهو يجر ثلاث عربات صغيرة..

وامتلأت حقيبة السيارة والمقعد الخلفي بالعلب والمعلبات والأكياس التي احتوت كل أصناف المحل.

وقاد سيارته، ولكنه لم يتجه إلى البنسيون مباشرة، بل إلى أفخر محل لبيع الملابس النسائية.

وانتقى عدداً من الفساتين والحقائب وضعها في مقعد السيارة الخلفي.. وفي محل آخر اختار مجموعة فاخرة من العطور وأدوات التجميل.

ثم اتجه إلى البنسيون وساعده أحد العاملين به في حمل كل تلك الأشياء إلى حجرة لوسي. وكانت الحجرة بسيطة الأثاث.. ليس بها من أمتعة غير حقيبة سوداء قديمة شاحبة اللون.. وبعض الملابس القديمة المعلقة فوق شماعة متهالكة.

ووقفت الأرمنية العجوز تنظر له في دهشة شديدة.. ولكن خمسين جنيها أخرى جعلها تبتلع دهشتها وتكتم فضولها بلا أسئلة جديدة.

وانتظر في سيارته أسفل البنسيون.. وحل المساء بدون

أن يتناول لقمة واحدة.. ودون أن يراوده أي إحساس بالجوع.

وظهرت لوسي أخيراً عائدة من عملها.. هبطت من الترام في المحطة المقابلة للبنسيون واتجهت إلى مدخله.. ولمحته في سيارته الفاخرة فتوقفت لحظة مقطبة.. ثم اندفعت داخلة دون أن تحاول الحديث معه.. فلم يحاول اعتراضها.

وكان واثقاً أنها ستعاود الهبوط خلال دقائق، بعد أن تفاجأ بالمشتريات الجديدة.

وبالفعل شاهدها تهبط السلم وتتجه نحوه بوجه إمتلأ بالدهشة.

وغادر هو سيارته.. وتقابل الإثنان في منتصف المسافة.. وقالت بوجه مقطب زادها فتنة : إنني لا أدري سر تصرفاتك معي فهل تشرح لي ؟

أجابها باسما : اعتبري تلك الأشياء هدية من صديق عزيز.

همست في دهشة : ولكن..

قاطعها قائلاً : إن نفس الصديق يدعوك على العشاء..

فهو لم يتناول طعاما منذ الصباح، لأن مشترياتك قد شغلته عن التفكير في أي شيء آخر.

ظهر التردد على ملامحها ثم قالت : وهل يعدني الصديق العزيز بأن لا يخرج سلوكه عن سلوك الصديق العزيز ؟

أجابها في ثقة : وهل ترين في ملامحي شيئا غير ذلك ؟

قالت ضاحكة وهي تتأمله : كل ما أراه فيك هو رجل يمتلك الكثير من المال ولا يعرف كيف ينفقه.

واتجهت إلى سيارته وركبت بجواره.. وانطلق هو بالسيارة.

وقالت له في حيرة : إنني لا أفهم سر تصرفاتك معي.. إنك لا تبدو شاباً طائشاً أو مراهقاً يطارد الفتيات الصغيرات ؟

أجابها وعيناه على الطريق : لعلني أحاول أن أخفف عنك ما سببته لك من رعب بالأمس وأنا أكاد أصدمك بسيارتي.

انفجرت ضاحكة : المفروض أن أعتذر أنا لك.. من المؤكد أن سيارتك قد أصابها تلف شديد وتحتاج إلى مال كثير لإصلاحها.

واجهها بعينيه الواسعتين السودايين قائلا :

لا قيمة للمال عندي.. وأخبرتك أن حياتك عندي تساوي مليون سيارة فلا يشغلك هذا الأمر ثانية.

رمقته بصمت.. وعبثت بأصابعها الخالية من أي حليّ في توتر.. ثم سألته بوجه مقطب : ما هو عملك ؟

أخرج لها كارت باسمه وعمله.. ألقت عليه نظرة في صمت.. ولمحت الدبلة الذهبية في أصبع يده اليسرى.. وتلاقت نظراتهما فقال بدون اضطراب : إنني متزوج ولي طفل صغير.

قالت في همس وإحساس بالذنب : هل تعرف زوجتك إنك ستشارك أخرى العشاء ؟

أجابها في تقطيب : ليس فيما أفعله أي عيب.

وتوقفت سيارتهما أمام مطعم فاخر، وظهر الارتباك واضحا على لوسي عندما شاهدت المكان، كأنها غير معتادة على دخول تلك الأماكن.. ولكنها سارت بجوار ماجد واستقر الإثنان فوق منضدة بركن المحل.. أوقدت فوقها الشموع الملونة وعبق الجو برائحة الورود الناضرة الفواحة فوق المائدة.

وجاء الجرسون بأصناف من الطعام لا تعرفها سلوى.. ولكن مذاقها كان لذيذا فراحت تأكل في سعادة وشهية زائدة.

وأخذ ماجد يرقبها أثناء تناولها الطعام.. كثيرون تصيبهم السعادة لوجبة طعام جيدة.. ووضح لعينيه أن وجبة طعام ممتازة بالنسبة لها كانت تعني الكثير.. ولعلها لم تنعم بمثلها أبداً من قبل.

وقال يسألها وهو يعرف الإجابة : هل لك أقارب في الاسكندرية ؟

أجابت ضاحكة : وهل كنت أقيم في بنسيون ؟

وفتحت حقيبتها وأخرجت منها صورة لرجل وامرأة مسنين في ملابس ريفية، وقالت له ضاحكة : هذان هما أبي وأمي.. إنهما يعيشان في ريف طنطا ويمتلكان قطعة أرض صغيرة يزرعانها هناك.. ولأنني لا أحب حياة الريف الضيقة لذلك اضطررت للبحث عن عمل للبقاء في الاسكندرية بعد انتهاء دراستي حتى لا أضطر للاقامة معهما في قريتنا الصغيرة.

وأكملت وهي تواصل طعامها : وعندما كدت تصدمني

بسيارتك كنت أسرع إلى ذلك المحل الذي شاهدتني أعمل فيه، فقد قرأت إعلاناً في الجرائد عن حاجته إلى عاملات، وبسبب قراءتي المتأخرة للإعلان في منتصف النهار، خشيت من ضياع الوظيفة فأسرعت أعدو إلى مكان المحل لمقابلة صاحبه، دون أن أنتبه إلى السيارات المارة في الطريق والتي كادت تدهمني.. بالرغم أن مرتب هذه الوظيفة لا تتعدى المائة جنيه، ولكن الحمد لله إنني أستطعت الحصول على هذا العمل رغم كل شيء.

قال وهو يملأ عينيه من ملامحها الساكنة في قلبه : اذن فأنت بحاجة إلى العمل.. ولكن ألا ترين أن عملك كعاملة في سوبرماركت أقل من مواهبك الحقيقية ؟

تساءلت بدهشة : وأين هي هذه المواهب التي تتحدث عنها ؟

أجابها بجمود : ربما هناك آخرون يقدرون هذه المواهب.. ما رأيك في العمل في وظيفة محترمة بمرتب ألف جنيه شهريا ؟

نظرت إليه بدهشة شديدة وتوقفت عن التهام الطعام، وأكمل هو قائلاً : هذا بخلاف مميزات أخرى كالمكافآت

وسكن خاص وهدايا أيضا ؟

رمقته بنظرة شك غاضبة وسألته : وما هو هذا العمل ؟

أجابها دون أن تهتز جفونه: سكرتيرتي الخاصة في شركتي.

نهضت في غضب قائلة بعينين ناريتين : كان يجب أن أدرك ذلك من البداية.. إنك تريد أن تغريني بهداياك والوعود البراقة وأنت تهدف إلى غرض واضح وهو أن..

أمسكها من يدها.. رمقها بنظرة باردة متجهمة جعلتها تبتر عبارتها، وتعاود الجلوس أمامه ببطء.. وقال لها بنفس الوجه البارد المتجهم : لا يمكن لأحد أن يجبرك على شيء لا تريدينه.. إن عرضي حقيقي ولست أعني أكثر مما قلت.. وعملك لن يتعدى عمل السكرتيرة الخاصة ولا شيء آخر.. وأنا لا أقبل أن تنظري إليّ تلكِ النظرة المتشككة.. فقد أخبرتك من قبل إنني لست مراهقاً أو شاباً طائشاً.. وضغط على عبارته وهو يكمل : أنا زوج.. وأب أيضا.

ونهض.. وترك ثمن العشاء على المائدة.. وقال وهو يرمقها بنظرة أخيرة : معك كارت بعنوان شركتي.. ويمكنك السؤال عنها قبل أن توافقي على عرضي أو تأتي لتتسلمي العمل.

وخرج من المطعم دون أن يستأذن منها أو يلتفت ناحيتها.

وبقت لوسي في مقعدها.. مندهشة.. محتارة.. لا تدري سر تصرف ذلك الإنسان العجيب. ولا معنى ما يفعله.. كانت تشعر أنها تقف في قلب دائرة تحاصرها.. دون أن تجد لها مخرجا منها.

وتساءلت في دهشة.. كيف ظهر هذا الرجل في حياتها فجأة.. وهل كان ظهوره متعمدا، أم مجرد صدفة غريبة، ولماذا أغدق عليها هداياه.. ولماذا تلك الرغبة الجارفة في أن تعمل سكرتيرة خاصة له، وبمرتب ضخم جداً لم تكن تحلم بربعه ؟

وألقت نظرة إلى الكارت مرة أخرى وفكرت، فكما قال صاحبه يمكنها السؤال عن إسم الشركة المدونة فيه وعن صاحبها قبل أن توافق على العمل معه.

وفكرت.. ما الذي ستخسره إذا فعلت ذلك.. فإذا كانت الشركة محترمة وكذلك صاحبها، فإنه من الغباء أن تفقد مثل هذه الفرصة التي هبطت عليها من السماء. وأخذت قرارها.. من الغد ستسافر إلى القاهرة.. وستسأل عن تلك

الشركة وصاحبها.. قبل أن تصعد إليه لتتسلم وظيفتها الجديدة.

وابتسمت في ارتياح شديد.. فها هي مشاكلها كلها قد حلت بصورة غير متوقعة.. مشكلة السكن.. والعمل.. والمال.. والمستقبل أيضا.

وأغمضت عينيها في راحة.. كانت قد بدأت تشعر بأحاسيس خاصة نحو ذلك الرجل الذي ظهر في حياتها فجأة..

كان صورة أخرى غير كل الذين صادفتهم في حياتها.. في ملامحه رجولة.. وفي حديثه ثقة.. وفي تصرفاته عزم وإرادة.

وفكرت أخيراً وهي تغادر المطعم الفاخر، ما الذي يمكنها أن تخشاه من رجل متزوج وله طفل.. لا تبدو عليه سيماء المراهقين والطائشين ؟

ولكن السؤال الذي بقي في عقلها بلا إجابة، هو لماذا يفعل معها ذلك الرجل كل هذا، وما معنى اهتمامه الخاص بها، وهو بحكم عمله وثرائه أمامه الآلاف من الفتيات الأخريات.. أكثر ذكاء وجمالاً منها ؟

وكان عملها معه كفيلاً بالإجابة على ذلك السؤال الذي لا إجابة له في عقلها.

« علاقة.. غامضة »

تسلمت لوسي عملها الجديد..

أصابها الانبهار لموقع الشركة التي تحتل عمارة ضخمة في أفخم أحياء القاهرة التجارية.. وكذلك حجم أعمال الشركة الذي يتجاوز المائة مليون كل عام.

أصابها ذهول شديد عندما شاهدت صف السيارات الخاصة التي يمتلكها ماجد صبري.. والملايين التي يتعامل فيها.. لم تصدق أن ذلك الرجل.. هو نفسه الذي تناول معها العشاء منذ أيام قليلة. وزاد تأكدها أن الأمر به سر.. سينكشف لها يوماً من الأيام.

وتسلمت عملها في الشركة كسكرتيرة خاصة لصاحب الشركة.. كان مكتبها يقع في مدخل مكتبه.. ولا يمكن

لأحد الضيوف أن يدخل إلى صاحب العمل.. قبل أن يمر بمكتبها أولاً.

وأهدى إليها ماجد سكنا خاصا في شقة فاخرة بالزمالك.. مؤثثة تأثيثا راقيا، دون أن يطالبها بأي ثمن.. أو يضايقها بطلب ترفضه أو تخجل منه.

ومكثت لوسي أياما وهي تشعر أنها تحلم.. لا تصدق أن حياتها يمكن أن تنتقل مثل هذه النقلة المذهلة، ودون أن يكون هناك سبب واضح.. سوى إرادة ماجد صبري.. ذلك الرجل الغامض في نظرها.. المغلّف بالأسرار.

وبدأت تتقن عملها خلال أيام قليلة.. وأدهشها أن بعض زائري ماجد والمتعاملين معه، بعضهم كانوا نساء على درجة عالية من الجمال والأناقة، ولكنها لم تضبطه مرة واحدة يختلس النظر إلى إحداهن.. ولا فازت أي منهن بإهتمام خاص بها منه.

وزادت حيرة لوسي.. أنها لا تفهم سر هذا الرجل.. تشعر أن في عينيه حديثاً خاصاً يرغب في أن يقوله لها.. ولكن شفتيه لا تفصحان عما في قلبه أبداً.

ولاحظت لوسي منذ الأيام الأولى أن ماجد يتعمد أن

تقضي أغلب أوقاتها في مكتبه.. يستدعيها ليسألها عن أحد العملاء أو بعض الأوراق.. بالرغم أنه يستطيع أن يسألها في التليفون أو جهاز الديكتافون.

ويخرج من مكتبه ليجلس معها في مكتبها.. ولا يخجل من ذلك.. وفي كثير من الأحيان كان يدعوها للغذاء معه في مطعم أحد الفنادق الفاخرة.. كأنه يباهي أن تكون معه، وطوال الوقت يحرص على ألا يرفع عينيه عنها أبداً كأنه يخشى أن تختفي فجأة من أمامه.

وتأكدت أنه يحرص على أن تكون بجواره أكبر فترة ممكنة.. لا يعهد إليها بعمل شاق.. وإن أخطأت في عملها لا يلومها.. لا يعاملها كسكرتيرة.. بل معاملة خاصة.

أكثر من مرة ضبطته ينظر إليها وهي منهمكة في عملها.. نظرته فيها نوع من الغموض والحيرة.. كأنه يطل عليها من وراء حجاب الزمن.. كأنه لا يصدق أنها تجلس في مرمى عينيه.

واحتارت هي.. لماذا يعاملها ماجد صبري بمثل تلك الطريقة ؟

وتساءلت.. هل يحبها.. إن الحب هو الدافع الوحيد

الذي يمكن أن يجعله يعاملها بمثل هذه الصورة.. ولكنه أبداً لم يصرح لها بمثل ذلك أبداً.. ولا حاول معها أي تصرف يخدش إحترامه في نظرها..

وقررت لوسي أن تدخل عالم ماجد صبري.. أن تكتشف حياته الأخرى في بيته.. كان ماجد يدعوها إلى كل مكان.. أحيانا يصطحبها إلى حفلات يقيمها رجال الأعمال.. وأحيانا إلى دعوات للعشاء مع بعض العملاء.. وأحيانا يخرج معها في نزهة بلا هدف..

ولكنه لم يدعوها إلى منزله أبداً.. كأنه يخشى أن تتعرف على أسرته الصغيرة.. وعالمه الخاص.

وقررت أن تذهب بلا دعوة.. وخرجت ذات صباح من شقتها متجهة إلى منزله في حي المعادي، وهي تقود السيارة التي خصصها لها من ضمن سيارات الشركة.

ودقت جرس الفيلا.. ففتحت لها خادمة كورية.. ولم تنتظر لوسي إذنا بل اتجهت داخلة إلى الفيلا الواسعة.

ووقفت لحظات تتأمل محتويات الفيلا الفاخرة.. وشاهدت إمرأة في حوالي الثلاثين من عمرها تهبط سلم الفيلا الداخلي متجهة إليها.

ولم يكن لدى لوسي من شك في أن هذه المرأة هي نادية.. زوجة ماجد صبري.

وحدقت نادية في لوسي وهي تشعر باضطراب خفي.. كأنما كل أوهامها قد تجسدت في تلك الفتاة.

كانت نادية قد بدأت تشعر بتغير في سلوك زوجها.. صار يتغيب كثيرا عن بيته.. يقضي أغلب يومه خارجه.. يخرج مبكراً ويعود متأخراً.. ودائما يتناول طعامه خارج المنزل.. وكانت تلاحظ في عينيه نظرة غامضة لا تدري لها تفسيراً.. كأنه يود أن يهرب من أمامها، ليذهب إلى عالم آخر.. وأنثى أخرى.

واحتارت من تكون تلك الأخرى التي دخلت حياة زوجها.. إنها لا يمكن أن تكون هذه المرة طيفاً أو وهماً.. فإن عيني زوجها تؤكد أن لهذه الأخرى وجود مادي..

وذات يوم اتصلت بزوجها في عمله منذ أسابيع فأجابت على التليفون سكرتيرته الجديدة.. وهي التي تعرف عنه أنه يكره السكرتيرات، ويقول عنهن أنهن يعطلن الأعمال ولا يُسَهِلْنَها، فهل كان سر تغير زوجها يكمن في تلك السكرتيرة الجديدة، التي لم يحدثها عن أمرها أبدا من قبل ؟

وتقدمت نادية نحو لوسي وقالت لها : أنت لوسي سكرتيرة ماجد الجديدة.. أليس كذلك ؟

أخفت لوسي دهشتها وقالت : نعم.. أنا.

وقفت نادية تحدق في لوسي بصمت كأنها تحاول أن تعرف لماذا يهتم بها زوجها كل هذا الاهتمام.. ولماذا غيرت حياته بمثل هذا الشكل ؟

وارتبكت لوسي أمام نظرات نادية وقالت لها : لقد جئت لاستشارة ماجد « بك » في بعض الأعمال العاجلة، وكان من المستحيل الانتظار لحين حضوره إلى مقر الشركة.

قالت نادية بجمود : كان يمكنك سؤاله بالتليفون.

ــ ولكنها أعمال تتطلب تفاصيل دقيقة ولا يصلح التليفون لمناقشتها.

ــ من العجيب أن ماجد خرج منذ دقائق ذاهبا إلى الشركة.

قالت نادية هذا في سخرية مريرة، وأحست لوسي كأن نادية تتهمها بشيء.. وتحركت كأنها تتراجع نحو باب الفيلا، عندما لمحت طفلا شاحب الوجه يتنفس بصعوبة،

وهو يغادر حجرته بملابس النوم، وخلفه ممرضة في ردائها الأبيض.

وأدركت لوسي أن ذلك الطفل هو ابن ماجد.. وأنه مريض بمرض خطير وإلا ما استدعى الأمر وجود ممرضة تقيم بصفة دائمة في المنزل.

وهمست لوسي معتذرة : أنا آسفة.. سأذهب لألحق بماجد « بك » في الشركة.

وأسرعت تغادر المكان كأنها تهرب منه..

واتجهت إلى شقتها.. وانفجرت باكية وسط فراغ الشقة والأثاث حولها.. كانت نظرات نادية تحاصرها.. تتهمها بشيء ما.. ربما تعدها المسئولة عن خطأ لم ترتكبه.

وقرابة الظهر دق جرس الباب.. ووجدت ماجد أمامها..

لم تجرؤ على مواجهته.. فقال دون أن تفصح عيناه عن شيئ : علمت أنك ذهبت اليوم إلى منزلي.

لم ترد.. قال بعد لحظة وهو يراقبها : يبدو أن أعصابك متعبة.. أنا أيضا أعصابي متعبة منذ فترة وبحاجة إلى الراحة.. مثلك تماما.

وجلس أمامها.. مد أصابعه يزيح خصلات شعرها التي

تناثرت فوق وجهها.. راح يتأملها بصمت كأنه ينهل من نبع بدون أن يرتوي.

قال يسألها : لماذا ذهبت إلى هناك ؟

قالت من وسط دموعها : أردت أن أتعرّف على أسرتك عن قرب.

لم يجبها.. شرد بصره.. قالت هامسة كأنها تحدث نفسها : إن لك زوجة جميلة وطفل بحاجة إليك.. فلماذا تفعل معي كل ذلك.. إنني لا أفهمك.

وواجهته بعينيها الواسعتين المليئتين بالحيرة والألم قائلة : أرجوك أخبرني.. إنني أتألم وأتعذب.. لماذا تفعل معي كل ذلك ؟

نهض وأعطاها ظهره.. قال بصوت بارد كالثلج : هناك صفقة قطع غيار يجب أن أسافر إليها في باريس للإشراف على شحنها إلى مصر.. وسيكون السفر خلال يومين.. وستسافرين معي.

فوجئت بما قال.. قبل أن تعترض كان قد غادر المكان وأغلق الباب خلفه كأنما لا رأي لها، وأن إرادتها قابعة بين أصابعه، يطلقها متى يشاء، ويسكنها متى أراد.

وقفت حائرة مشتتة.. كانت لا تعي ما قاله.. بداخلها رغبة هائلة لأن تعرف سر ما يفعله معها.. ولماذا هي بالذات.. وإن كان قد أحبها فلماذا لا يعترف لها بذلك.. لماذا يعذبها بصمته وأسراره ؟

وكادت تندفع خلفه لتعلن رفضها لسفرها معه.. ولكنها تراجعت.. وضاقت عيناها وقد اتخذت قرارها.

سوف تسافر معه.. ولن تعود قبل أن تكتشف كل أسرار قلبه الغارق في الصمت والغموض.

* * *

وتقبلت نادية قرار زوجها بالسفر في صمت كعادتها أمام كل قراراته.

وراح الخدم يحزمون حقائب ماجد.. ووقفت زوجته تراقبه وهو يعقد رباط الكارافت حول رقبته في اهتمام وأناقة واضحين.

وسألته في جمود : هل ستغيب طويلا ؟

أجابها وهو يتحاشى النظر إليها : لا أدري.. ربما أسبوع.. إثنان.. أو أكثر.

قالت في مرارة : إنها أول مرة تسافر إلى الخارج منذ زواجنا.

أجابها بلا مشاعر : للعمل أحكامه.

فاجأته قائلة : هل ستصطحب سكرتيرتك معك ؟

استدار نحوها ببطء.. واجهها.. كان في عينيها حزن قاتل.. وألم صريح معذب.. نكس بصره وقال متهربا : إنني بحاجة إليها هناك لتسهيل بعض الأعمال.

واتجه إلى باب الحجرة وهي تتابعه بعينين مليئتين بالدموع دون أن تعلق على ما قاله.

وشاهدته وهو ينحني على طفلهما.. يرفعه بين يديه ويقبله.. كان الطفل يسأله : لماذا ستسافر يا بابا ؟

رأته يداعب أنف طفلهما وهو يقول :

سفري ضرورة لعملي.. وسوف آتي لك بلعب كثيرة من هناك.

قال الطفل حزينا : لا أريد أي لعب.. أريدك دائما بجواري.

شاهدته ينزل الطفل من فوق ذراعيه.. كأنه يهرب منه.. ويتجه مسرعاً نحو باب الفيلا.

ومن مكانها في حجرتها، سمعت نادية صوت سيارته وهي تتحرك باتجاه المطار.. وسكرتيرته بجواره.. وحقائبهما معا في السيارة.. التي تأخذهما بعيدا.. بعيدا.

أخفت نادية وجهها بين كفيها.. انفجرت باكية مرة أخرى.. ها هو المجهول الذي كانت تخشاه دائما يطعنها في أعز ما تملك.. زوجها. ها هو يتسرب من بين أصابعها.. لتمتلئ أصابعه بإنسانة أخرى غيرها.

شعرت كأن زوجها صار ملكاً لتلك الفتاة.. معها يبدو مسلوب الإرادة مندفعا كطفل صغير.. لا تفهم سر تلك العلاقة الغريبة بين زوجها وهذه الفتاة.. تلك العلاقة التي أنسته زوجته وطفله وبيته.. ولكن ما الذي كان باستطاعتها أن تفعله وهي التي اعتادت أن تكون كلمتها تالية لكلمة زوجها.. وحبيبها.

كانت متأكدة أن العمل هو حجته للسفر معها.. وأنه أراد أن يهرب من عينيها التي باتت تحاصره، فاندفع إلى بلاد أخرى.. ليكون بعيدا عن أي رقابة.. مثل مراهق يقع في الحب لأول مرة فيتسلل بعيداً عن العيون كي لا تفضحه عيناه، وها هو زوجها يفعل ذلك دون مواربة، ولا يهتم

حتى بأنه يصدمها في مشاعرها، أو أنها تدرك سر تصرفاته.

واندفع طفلها يسألها في حزن : لماذا تبكين يا أمي ؟

ولم تجد ما ترد به عليه سوى أن تحتضنه في شوق وعنف، كأنها تخشى أن تفقده هو الآخر.

« اعتراف »

باريس معشوقة.. عشاقها ملايين من البشر.. حسناء لم يختلف اثنان على حسنها وجمالها.

باريس القديمة عتيقة.. عبق الماضي يفوح من أركانها.. كعجوز لم تفقد أصالتها ولا ملامح جمالها الماضي.

وباريس الحديثة مجنونة.. صيحات الموضة تبدّل فساتينها وأذواقها كل ساعة.. وأضواؤها المتألقة الساطعة في الشانزلزيه وقوس النصر والكونكورد.. كلها توحي بحياة صاخبة تصيب بالدوار من يراها لأول مرة، فيحسب نفسه قد ذهب إلى قطعة من الجنة.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها ماجد صبري باريس.. حسناء أوروبا.. والماسة المتألقة في تاجها وجيدها.

ولكن انبهاره بها كان أقل.. اعتاد دائما أن يكون رد فعله متحفظا.. مهما كانت شدة انفعاله.

أما لوسي فكانت مثل طفل صغير في مدينة للملاهي.. بهرتها أضواء المدينة، أدار رأسها حسنها.. طرقاتها.. مبانيها.. حوانيتها.. نساءها.. نهرها السابح في الأضواء.. مترو الأنفاق الذي يهبط تحت الأرض أربعة أدوار متقاطعة معا.. برج إيفل السامق فوق رؤوس البشر.

وصل الإثنان باريس مساء.. ولم يرتاحا لحظة واحدة.. تركا حقائبهما في الفندق الفاخر المطل على ميدان الكونكورد.. وشرعا يتجولان تحت الأضواء اللامعة وفي قلبها ساعات طويلة.

باريس مدينة لا تعيش إلا ليلا.. ولا ينكشف حسنها إلا تحت الأضواء. وقرابة الفجر جلسا فوق مقعد خشبي صغير على شاطئ نهر السين بعد أن أنهكهما طول السير.. وراحا يرقبان جريان ماء النهر المغسول بالأضواء الساقطة عليه من كرات الضوء المعلقة فوق أعمدة الإضاءة والبنايات البعيدة.

أغمضت لوسي عينيها، وهمست في سعادة طاغية :

أشعر كأنني في حلم.. بل أكثر من حلم.. فأحلامي كانت دائما متواضعة.. لم أتخيل يوما أن أزور باريس.

همس ماجد يقول لها : سأحقق لك كل أحلامك مهما كانت.

فتحت عينيها، وتأملته بنظرة واسعة وقالت له : إنك تبدو مثل جني مصباح علاء الدين.. قادر على أن تفعل كل شيء بإشارة واحدة من يدك.

وأكملت ضاحكة : هل تعرف.. لقد تمنيت لو كان لي أب مثلك.. له وسامتك.. وعيناك.. وهذه المشاعر الرقيقة.. وذلك الشعر الأبيض في فوديه.. وعمره خمسون سنة مثلك بالضبط.. لو كان لي مثل هذا الأب لأحببته كثيرا ولم أكن أفارقه لحظة واحدة.

ظهر الاستياء على وجه ماجد.. ضايقه تشبيهها له بالأب.. كان يريدها لشيء آخر.

ولم ينطق على الفور.. اضطربت أهدابه.. ومد أصابع مترددة نحو كفها الصغير المستسلم فوق ساقها.. ووجهها الباسم يتألق بأنوار السعادة.

وفوجئ ماجد بملامح الفرحة تذوب فوق وجهها..

سحبت أصابعها من لمسته بسرعة وعنف، فأثارت ارتباكه وخجله، وداهمه شعور أنه مراهق صغير قد أخطأ بتصرف طائش.

ونهضت لوسي مقطبة وهي تقول : من الأفضل أن نعود إلى الفندق.

نهض هو صامتا.. أشار إلى أول تاكسي مر بهما.. وطلب منه الاتجاه إلى الفندق.. ووصلاه بعد قليل فدخل كل منهما حجرته.

وأغلقت لوسي حجرتها على نفسها.. تمددت فوق فراشها وعقلها يتساءل بعنف.. هل يحبها.. ولم تكن هناك إجابة منطقية تبرر تصرفاته معها غير الإيجاب على هذا السؤال.. إن كل تصرفاته معها ومشاعره الناطقة في وجهه تكاد تفصح عن هذا الحب.

ولكن تلك النظرة الغريبة في عينيه.. كأنه ينظر إلى فتاة أخرى غيرها.. تشعر وهو يحدثها كأنه لا يعنيها هي.. كأنه لا يقصدها بذاته.. كأنه يخاطب أخرى غيرها.. يبحث عن كيان آخر في وجودها.

وظلت تتقلب فوق فراشها حتى الصباح..

وخرجت إليه بوجه مسهد وعينين مؤرقتين وملامح بلا زينة، وشعرها الأسود الفاحم قد عقصته خلف رأسها بلا ترتيب.

كان هو ينتظرها في مطعم الفندق.. وراحا يتناولان طعامهما بلا كلمة واحدة.. وظهر على ملامحه المرهقة أنه لم يغمض له جفن بقية الليل.. وأنه ظل مسهداً أرقاً مثلها.

وبعد الإفطار ألقى إليها بعشرة آلاف فرنك على المائدة وهو يقول لها : يمكنك أن تقومي بجولة وحدك وتشتري ما تشائين بهذه الفرنكات.. سأذهب أنا لقضاء بعض الأعمال المتعلقة بالصفقة التي جئت لأجلها وسأعود مساء.

سألته : ألن أذهب معك ؟

ـــ لا.. سأذهب وحدي.

وتركها وحيدة وغاب عنها بقامته الطويلة، وذاب وسط السائرين خارج الفندق.

وفكرت لوسي.. هل لا يزال غاضبا مما حدث بالأمس.. هل هو غاضب لأنها بخلت عليه بلمسة من أصابعها.. ولكن أي حق له فيها ؟ وحتى لو كان يحبها.. فإن هذا الحب لا يمنحه أي حقوق عليها.

هل هو غاضب لأنها شبهته بأبيها.. لقد كانت صادقة تماما.. ولكنه لا يعرف أن فتيات كثيرات يقعن في حب رجال كبار في السن، لمجرد أنهم يشبهون والديهم.. وهي لم تتمنى رجلا إلا بهذه الصورة.. شبيها بوالدها.

لا يعرف أن قلبها يدق بسببه.. يدق بعنف.. وكما لم يحدث من قبل.. ولكنه زوج وأب.. وكان هذا أكثر ما يعذبها.. تشعر بالخيانة حتى بدون أن يحدث شيء.. تشعر بعذاب تلك الزوجة المسكينة المنتظرة مع طفلها المريض بلا ذنب.

وضعت النقود في حقيبتها.. غادرت الفندق وراحت تتجول على قدميها.. لم تنفق شيئا من العشرة آلاف فرنك.. وضاع من قلبها إنبهار الأمس بكل ما شاهدته.

كل ما اشترته رباط عنق لماجد.. دفعت ثمنه من مالها الخاص.

وبقيت في حجرتها تنتظر عودته.

وقرابة منتصف الليل سمعت خطواته تدخل حجرته المجاورة لحجرتها..

نهضت وطرقت بابه.. فتحه بعد لحظة.. تواجها.. كان

يبدو عليه الإرهاق الشديد.. وراودها إحساس أنه لم يذهب لعمل ما.. بل أنه راح يتجول في الطرقات والشوارع مثلها طوال نهاره.

أخرجت له الكارافت وقالت له : أعجبني فاشتريته لك.. لم أشتر شيئا آخر.. والمال لا يزال معي.

لمعت عيناه بابتسامة حزينة.. أخرج من جيبه علبة صغيرة من القطيفة مدها إليها.. فتحتها فوجدت بداخلها خاتماً من الماس.

قبل أن يرى رد فعلها همس يقول : تصبحين على خير.

وأغلق بابه برفق..

كان يريد أن يبقى وحيداً.. يختلي بنفسه.. يفضفض مشاعره إلى نفسه.. وعادت هي إلى فراشها.. وبريق الماسات في الخاتم يخطف بصرها.. لم تتجمل يوما بأي ماسات.. ولم تتخيل يوما أن تمتلك مثل هذا الخاتم الماسي.

وشعرت بالإرهاق الشديد فنامت على الفور.. وعلبة الخاتم فوق فراشها بجوارها.. بدون أن تضعه في أصبعها.

مر يومان كاملان.. كانت لا تراه فيهما إلا بعد عودته في الليل المتأخر.

كانت تشعر أنه يتهرب منها.. لا يريد مواجهتها.

وفي اليوم الرابع فوجئت به ينتظرها في مطعم الفندق.. وقال لها : أريد أن أحدثك في أمر هام.. ولن يصلح الحديث هنا.

وخرجا واستقلا تاكسياً إلى حدائق برج « إيفل ».. وجلسا على العشب الأخضر مثل طفلين..

ووضح في عينيه لها، أنه خاض مع نفسه صراعا هائلا ليستقر على مكاشفتها بأمر ما.

وقال لها وهو يبذل مجهوداً جباراً ليتحكم في مشاعره : هل تعلمين لماذا أتينا إلى باريس ؟

قالت له : لم يكن هناك أي عمل أو صفقات.. أليس كذلك ؟

أجاب بدون أن يتهرب منها : هذا صحيح.

قالت له : والأيام الماضية كنت تقضيها في التجوال طوال يومك بلا هدف.. أليس كذلك ؟

نظر إليها بدهشة فأكملت : عيناك كانت تقول كل شيء.. كما أنها لا تزال تقول أشياء أخرى كثيرة.

قال لها في ثبات : لا مفر من الاعتراف.. لن أظل

أهرب من الحقيقة طوال عمري.. ما تبقى منه أقل بكثير مما ضاع.

وثبت نظراته عليها وهو يقول : هل تعرفين لماذا فعلت كل ذلك معك.. لأنني أحبك.

خفق قلبها بعنف عندما سمعت كلماته.. كانت تتوقعها.. تنتظرها.

وأكمل هو لاهثا : منذ اللحظة الأولى التي شاهدتك فيها بعد أن كدت أصدمك بسيارتي.. منذ هذه اللحظة وأنا غارق في حبك حتى أصابعي.. وكان من المستحيل أن أبتعد عنك بعد ذلك.. ولهذا طلبت منك أن تعملي سكرتيرة خاصة لي لتكوني بقربي دائما.. ولهذا أيضا طلبت منك أن تسافري معي إلى باريس.. رغم أنه لا يوجد أي عمل هنا.. فقط أردت أن تكوني بقربي ومعي.. بعيداً عن كل العيون.. ودون أن يكون هناك ما يخجلنا.

اضطراب عينيه جعلها تسأله : لماذا أنا بالذات.. هناك آلاف من الفتيات يفوقنني جمالاً وذكاء.. لماذا أحببتني أنا بالذات ؟

قال وعيناه تهربان منها : الحب لا يعترف بأي مقاييس..

الحب لا قواعد له في الاختيار.. الحب مثل ومضة برق لا نعرف متى تلمع في السماء.. لوسي.. أنا أطلب منك الزواج.. هل توافقين ؟

لم تهتز أمام طلبه.. لم تشعر بالفرحة. شيء ما في عينيه جعلها تشعر أنها تسبح في مياه عميقة لا تدري إلى أين ستقودها.. تشعر أنها تُغرقها ولا تدفعها إلى الشاطئ.

عادت تسأله بتجهم وإحساس بالمرارة والأسى : لماذا أنا بالذات ؟

لم يجاوبها على الفور.. كان يبذل جهدا خارقا ليسيطر على مشاعره.. كان في حيرة شديدة.

هل يخبرها أم لا..

ونطق أخيراً قائلا : سأعترف لك بسر.. سر عمره خمسة وعشرون عاما في حياتي.. كنت أهرب منه طوال الوقت.. أحاول أن أنساه.. طيف قديم ملأ قلبي وذاكرتي.. ظننت في لحظة من اللحظات أنه إنمحى من عقلي وقلبي وأنني تحررت منه أخيراً.. ولكنك عندما ظهرت في حياتي أيقنت أنني كنت واهما.. وأنه لا يزال يسكنني ويعيش في أعماقي.

استمعت لوسي إليه بصمت.. بدأ هو يرتب أفكاره ثم

انطلق متحدثا.. أخبرها عن بداية حياته.. كيف شقي وتعلم وأنفق على نفسه بعد وفاة والديه وهو صبي حتى أكمل دراسته الجامعية.. وكيف كان تعيينه في مصلحة الضرائب.. ثم كيف رأى طيفه القديم أول مرة.. سلوى.

ورق صوته وخفتت نبراته.. وذابت ملامحه وهو يحكي لها عن سلوى.. كأنه يلقي قصيدة عشق.. كأنه قيس يبكي ليلاه.. ينتزع الذكرى المؤلمة من رحم الماضي.. وتشرق ملامحه بنور الفجر وهو يتحدث عنها هي.. لوسي.. يتحدث عنها.. كأنها بعث جديد.. ولادة ثانية.. لهذا الطيف.. لها نفس الملامح والقوام والصوت.

كأن التاريخ يعود إلى الوراء خمسة وعشرين عاماً ليعوضه عن حرمانه السابق. وصمت ماجد أخيراً..

وشاهد الدموع وهي تسقط من عيني لوسي.. فهمس يقول لها وهو يمسح دموعها بأصابعه:

أرجوك.. لا أريد أن أرى دموعك أبداً.. كفانا دموعاً.

قالت في مرارة: لم أكن أظن أنك تحمل كل هذا الحزن في قلبك.. كنت أظن أنك تعيش سعيداً لا يشغلك شيء في هذا العالم.. ليس أقسى من أن يعيش الإنسان

وهو يشعر بالحرمان المؤلم والأسى الحزين كل هذه السنين.. وهو يبحث عن سعادة مفقودة.

قال وهو يحتضن أصابعها بكفيه : ولكن القدر أرسلك إليّ ليعوضني عن كل سنوات حرماني وحبي المفقود.

قالت بعينين مصدومتين : لا.. انك لم تحبني أنا.. أنت تحبها هي.. سلوى.. ماضيك الضائع منك والذي عشت عمرك كله تبحث عنه.

قال وهو يتشبث بها : أنت هو هذا الماضي وقد تجسّد حاضراً.

قالت : لا.. أنا صورة منه فقط.. أنت لا تحبني.. بل تتشبث بصورة قديمة وجدت فيها السلوى لحبك القديم.. أنا لا يمكن أن أعوضك عنها أبداً.. أنا تقليد زائف لا حياة فيه ولا نبض لإنسانة كانت لها حياة ووجود في قلبك.. أنت مثل السائر في صحراء قاحلة بحثا عن نبع ماء.. يوهم له السراب أنه عثر على ضالته فيها.. وأنا ذلك السراب الذي ظهر لك فجأة في أفق حياتك.. فجعلك تتوهم أنك عثرت على حبك الضائع.

قال يتوسل إليها : لا أريد غير حبك وأن تكوني بقربي دائماً.. لا أطيق أن أفقدك ثانية.

قالت باكية : لست أنا من تريدها.. ليس قلبي هو ما ترغب في امتلاكه.. سوف نتعذب سوياً لو زاد اقترابنا عن بعضنا.. أنت تبحث بداخلي عن أخرى لا وجود لها في مشاعري.. وأنا سأشعر أنني لن أمتلكك أبداً.. لأن حبك لأخرى حتى لو كان موجهاً لي، أنت لا تراني أنا.. بل تراها هي.

قال لها وهو يتشبث بها أكثر : سأتزوجك فلا نفترق أبداً.

قالت له : سوف يفرّقنا ذلك الطيف القديم فهو الحقيقة الوحيدة في قلبك.

قال لها : سأتزوجك فتصيرين حقيقة في ذاتي.

قالت باكية : وما ذنب زوجتك وطفلك ؟

قال لها : تزوجتها في الزمن الخطأ دون إرادة مني.. سأطلقها لو شئتِ.. وإبني سيظل معنا.

قالت : سأكون أنانية وغادرة إذا طلبت منك ذلك.. وستصبح حياتي مثلها.. أعيش معك وأنا أشعر أن ثالثة

غير مرئية تشاركني فيك وتأخذك مني.. لا.. ليس زواجنا هو الحل.. ولا هو طلاقك من زوجتك.. زواجنا سيزرع الحزن في نفس طفلك.. ولن تحصل إلا على سعادة زائفة.. وستعود مرة أخرى تبحث عن طيفك القديم.. زواجنا هو الآخر سراب لن تحصل منه على أي سعادة.

ــ وقلت لك أنك طيفي.

ــ لست أنا.. أؤكد لك لست أنا.. كنت أتمنى لو أنك أحببتني لذاتي.. لنفسي.. لأنني أنا ولست أخرى.. لأنني كيان متجسد أمامك وليس طيفاً أو وهماً.. كنت أتمنى لو أنني صادفتك في زمن آخر.. بلا زوجة أو طفل.. وقتها كنت سأرتبط بك بلا تردد لأنني أحببتك.. صدقني.. أحببتك كأبي وأخي وككل الأحباء الذين تمنيتهم في هذا العالم.. أحببتك لدرجة أن افتراقي عنك صار أمرا مؤلما يعذبني ويقتلني.

ونهضت من جواره باكية.. هرولت مبتعدة.. وراقبها هو بصمت حتى اختفت عن عينيه..

وأخفى وجهه بيديه وصوت كلماتها يرن في أذنيه :

لست أنا من تريدها.. أنت تبحث بداخلي عن أخرى لا وجود لها في ذاتي.

وشعر أن الدنيا تترنح حوله.. نهض بمشقة.. سار بمحاذاة النهر الكبير المتدفق حاملا معه مشاعر البشر.. أحزانهم وآلامهم.. آمالهم وأحلامهم الضائعة.. ولكن، حتى ماء النهر بأكمله لم يكن قادراً على غسل مشاعره وأحزانه.

ولام نفسه في ندم شديد لأنه أخبرها عن الحقيقة.. وتساءل مصدوماً، هل كانت لوسي على حق عندما قالت أنه لم يحبها هي.. بل أحب صورتها فقط.. وأنه كان يبحث بداخلها عن أنثى أخرى لا وجود لها إلا في ذاكرته ؟

وفي المساء عاد إلى الفندق.. وفوجئ برسالة تنتظره من لوسي في استعلامات الفندق..

كانت الرسالة تخبره أنها عادت إلى القاهرة.. وتطلب منه أن يبتعد عنها إلى الأبد !

« ضحكات القدر »

جن جنون ماجد.. شعر كأنه يسقط في بئر أو دوامة.. تصور للحظة أنه يمكن أن يفقد لوسي فشعر كأنه يفقد جزءا من كيانه الحي.

أنه يريدها.. حتى لو كانت ذكرى باهتة.. حتى لو كانت صورة زائفة.. يريدها بجواره ولا يستطيع الابتعاد عنها مهما كان السبب..

ولم تكن هناك طائرات متجهة إلى القاهرة ذلك المساء.. وقضى الوقت حتى الصباح وعيناه معلقتان على عقارب الساعة.

ووصل القاهرة قرابة الظهر.. واندفع من فوره إلى شركته.. وفوجئ موظفو الشركة به.. ولكن.. لم يكن للوسي أي أثر بالشركة.

وانطلق بسيارته إلى شقتها الفاخرة في الزمالك الذي استأجرها باسمها. وكانت السيارة التي خصصها للوسي في أسفل العمارة.. فهمس لنفسه في راحة: لا بد أنها بالشقة.. بدليل وجود السيارة بأسفل.

ولكن باب الشقة كان مغلقا.. ولم يكن هناك من يرد على طرقاته المتوالية.. فأخرج مفاتيح الشقة الاحتياطية وفتح بابها.

واستقبلته الشقة الخالية من الحياة.. لم يكن هناك أثر لوجود لوسي.. اختفت كل أغراضها من الشقة.. ملابسها وأوراقها وأشياءها الخاصة.. ولمح فوق مكتب حجرة نومها العلبة الحمراء التي أهداها لها في باريس.. كان بداخل العلبة الخاتم الماسي.. ومفاتيح سيارتها.. ومفاتيح الشقة.. والعشرة آلاف فرنك.

وكان دولاب حجرة نومها يحتوي على كل هداياه لها.. غير منقوصة. وكان لذلك معنى واحد.. أنها قررت أن تخرج من حياته إلى الأبد.. وأنها تترك له كل اشيائه.. كل ما يربطها به.

وإنهار فوق الفراش الوثير.. وأخفى وجهه بيديه. لا

يكاد يصدق أنها يمكن أن تخرج من حياته بمثل تلك الصورة.

لا يمكن أن يفقدها مرة أخرى.. لا يمكن أن يعيش نفس لحظات العذاب مرتين.. أن يعيش مشاعر اليتم والضياع مرة أخرى.

حتى لو لم تكن هي... حتى لو كانت وهما.. صورة زائفة.. سراباً.. أيا كانت صفتها فهو يريدها بجواره.. لا يتحمل أن تختفي عن عينيه وتغيب عن عالمه.

لا يمكن أن يعبث به القدر إلى هذا الحد.. لا يمكن أن يكون ألعوبة تافهة في يده بهذا الشكل.. لا يمكن أن يكون مثل قطرة مطر لا إرادة لها.. يسقطها السحاب متى يشاء، وتضربها الريح في سقوطها فتشتتها في كل إتجاه، ثم تسقط عليها أشعة الشمس فتمحي كيانها المادي.. فتعود مرة أخرى إلى السحاب لتسقط مطراً بعد ذلك في رحلة عذاب لا نهاية لها.

وصرخ كأنه يصارع مجهولا : لن تهزمني ثانية أيها القدر.. وسأعثر عليها.. حتى لو بقيت عمري كله أبحث عنها.

وأسرع يهبط سلالم العمارة نحو سيارته.. ثم انطلق

بها باتجاه الاسكندرية.. كان هناك أمل أخير بأنها عادت إلى البنسيون الذي كانت تقيم فيه من قبل.. وإلى عملها في السوبرماركت القديم..

ولكنها لم تكن في البنسيون.. وقالت له صاحبته الأرمنية العجوز أنها لم تشاهد لوسي منذ غادرت البنسيون آخر مرة منذ شهور.

واندفع ماجد كالمحموم إلى السوبرماركت الذي كانت تعمل فيه لوسي من قبل.. وتردد متألما قبل أن يدخله.. كأنه يخشى.. ألا يعثر عليها بداخله.

واستعان بإرادته وخطا داخلاً.. وطاف بأنحاء المحل يبحث عنها. ولكن.. لم يكن لها وجود في المكان.

وشعر باليأس يكاد يشله.. أين يمكنه أن يبحث عنها.. اختفت تماما ولم تترك أي أثر أو عنوان.. هل سيظل يبحث عنها في الاسكندرية كلها.. وما أدراه أنها عادت إلى الاسكندرية ولم تذهب إلى أي مكان آخر ؟

وطاف خاطر في ذهنه، لماذا لا تكون قد عادت إلى أسرتها في طنطا.. إلى أبويها الريفيين في إحدى قرى طنطا الذين أرته صورتهما من قبل ؟

وتذكر بدهشة أن لوسي خلال عملها معه لم تذكر والدها ولا والدتها.. ولم ترسل لهما أو تتسلم منهما أي خطاب.

ولكنهما موجودان على أي حال.. وعليه البحث عنهما، فهما الخيط الأخير الذي يوصله إلى مكان لوسي.

ولكن كيف يمكنه أن يعثر على هذين الأبوين، في ريف مدينة بأكملها ؟

وكان هناك تصرف وحيد يقوم به للعثور على مكان هذين الأبوين.

واستقل ماجد سيارته متجهاً إلى مدينة الطالبات بجامعة الاسكندرية.. ووقف أمام الموظف المسئول يقول له : إنني أرغب في معرفة عنوان أسرة طالبة كانت تقيم في المدينة الجامعية لديكم.

ونظر إليه المسئول في شك وفضول، فقال ماجد شارحا : إنها صديقة لابنتي التي كانت طالبة لديكم هنا أيضا. وقد انفصلت الاثنتان بعد انتهاء الدراسة.. وللأسف فإن ابنتي لا تعرف عنوان صديقتها وهي تود أن ترسل إليها دعوة لحضور حفل عيد ميلادها.

ظهر الاقتناع على وجه المسئول وهو يقول : سأبحث لك عن عنوانها في سجلاتنا.. فنحن نحتفظ بعناوين كل المقيمات في المدينة الجامعية لدينا.

وأخرج عدة ملفات ضخمة راح يبحث في أسمائها حتى توقف أمام اسم لوسي فتحي.

ودق قلب ماجد بشدة.. وراح الموظف يبحث بداخل أوراق الملف حتى انتهى منه، وظهرت الحيرة عليه وهو يقول : هذا عجيب.. ليس هناك أي عنوان لأسرة هذه الفتاة.

هتف ماجد محتجا في دهشة واستنكار : كيف ذلك.. لا بد أن يكون هناك عنوان ما.. إن أوراق أي طالب أو طالبة لا تُقبل هنا إلا إذا كان هناك عنوان لأسرته للرجوع إليه وقت الحاجة.

قال المسئول في حيرة : أعرف ذلك.. ولكن خانة العنوان خالية هنا.. أنظر.

وكانت خانة العنوان خالية بالفعل..

وشعر ماجد بالدوار.. وأنه لا يكاد يقوى على الوقوف على قدميه.. شعر بالقدر يحاصره.. ويضحك عالياً ساخراً.. وهو يوجّه له آخر ضرباته.

« الاكتشاف »

ولكن ماجد لم يستسلم للقدر هذه المرة..

كانت لا تزال هناك فرصة أخيرة للحصول على عنوان أسرة سلوى.. وكان ذلك العنوان مدوناً في شهادة مدرستها الابتدائية أو الإعدادية أو حتى الثانوية في مدرستها.

وكل ما استطاع أن يعرفه أن لوسي كانت طالبة في مدرسة صفية زغلول الثانوية للبنات.. فاستقل سيارته متجها إلى مكان المدرسة.

وفي الطريق طاف سؤال غريب في ذهنه.. فإذا كانت لوسي طالبة بمدرسة ثانوية في الاسكندرية، لذلك كان من المفروض أن تقيم أسرتها في نفس المحافظة لتكون قريبة من المدرسة.. فكيف أخبرته أن أسرتها تعيش في طنطا.. فهل كانت كاذبة ؟

وحتى إذا كانت كاذبة، وكانت لها أسرة تعيش في الاسكندرية، فلماذا أقامت في المدينة الجامعية ولها أسرة تعيش في نفس المدينة ؟

وكيف أقامت أيضا في بنسيون.. وكيف تركها أهلها تفعل ذلك ؟

وأحس ماجد أن هناك لغزاً يختفي خلف لوسي.. وأنه سيكشفه حتما. واستقبلته مديرة مدرسة صفية زغلول بترحاب.. واتبع نفس الحجة التي ساقها لموظف المدينة الجامعية، وبسبب منظره المحترم راحت المديرة تبحث في ملف لوسي بعد أن أحضرته بنفسها من حجرة السكرتيرة.. ثم التفتت مقطبة إلى ماجد وقالت له : لقد كانت لوسي طالبة بالفعل في هذه المدرسة.. ولكنها كانت تدرس من الخارج.. وامتحنت من المنازل.. ولم تكن طالبة منتظمة بالمدرسة بسبب ظروفها الخاصة.

هتف يسألها في لهفة طاغية دون أن ينتبه إلى مغزى عبارة المديرة الأخيرة : وعنوانها الذي كانت تقيم فيه ؟

رمقته لحظة، ثم قالت ببطء : ملجأ أيتام الشاطبي.

تراجع ماجد إلى الخلف كأنه تلقى ضربة أو صفعة..

ولم يستوعب ما قالته المديرة تماما.

كانت المفاجأة مذهلة.. ملجأ أيتام.. ان هذا يعني أن والديها قد توفيا منذ طفولتها وإلا ما تم إيداعها الملجأ.. فلماذا أخفت عليه ذلك.. لماذا لم تصارحه بالحقيقة وقالت له أن والديها يعيشان في طنطا ؟

اليتم ليس عيبا لنخفيه.. ألهذا كانت دائما تقول له أنها كانت تتمنى لها أبا له نفس ملامحه.. لقد أحبت فيه صورة والدها الغائب عن الدنيا. أحبت فيه حنانه ورقته معها.. أحبت فيه كل الأحلام التي حرمتها الدنيا من تحقيقها لأنه لا أب لها يحققها.. وجاء هو ليحقق لها كل ما تمنته.

وعندما اكتشفت أنه يريدها زوجة لا ابنة هربت منه.. اختفت من أمامه.. ذابت وسط ملايين البشر.. حتى لا تفقد أحاسيس الابنة تجاهه.. أحبت فيه صورة أبيها.. وأحب هو فيها صورة حبيبته الماضية.

وشعر بدوار شديد.. وتقلصت أصابعه في غضب هائل.. لماذا لم تخبره بالحقيقة..

لماذا كذبت عليه ؟

وشعر باليأس يتسلل إليه.. مرأ.. أليما..

كانت نشأتها في ملجأ تعني قطع آخر خيط يمكن أن يربطه بها.. فلا عنوان لها ولا أسرة.. عنوانها الآن قد يكون أي مكان.. وأسرتها قد تكون أي انسان يرق قلبه لها بلا غرض.

وشعر بالدموع تتسلل من عينيه.. دموع الشفقة عليها.. وهو يراها انسانة وحيدة بلا هوية ولا أسرة ولا مستقبل ولا عمل لديها ولا مال.. فإلى أين يمكنها أن تلجأ في هذا العالم الواسع.. القاسي ؟

ووجد نفسه وحيدا يقود سيارته.. لا يدري أين يذهب بها..

ها هو القدر يثبت له أنه الأقوى.. ويُمحي معالم الطريق من أمام عينيه. ودون أن يدري وجد نفسه يقود سيارته إلى ملجأ الشاطبي.

وطالعته وجوه صغيرة لفتيات في عمر البراعم.. تبدو على وجوههم معالم الأسى والحرمان والحاجة.. وملابسهم قد استعملها آخرون من قبل.

واستقبلته مديرة الملجأ في ترحاب.. فقال لها مباشرة : جئت أتبرع للملجأ بمائتي ألف جنيه.

لم تصدق المرأة نفسها.. قالت ذاهلة : مائتي ألف جنيه.. منذ إنشاء الملجأ لم يتلق مثل هذا المبلغ تبرعاً.. ولا ربعه.. إننا نكاد نتسول من المتبرعين ملابس الفتيات المستعملة.

قال في قسوة: إن تبرعي مرهون بسؤال أريد إجابة عليه.

نظرت إليه بشك.. فقال لها دون مواربة : هناك فتاة تربت في هذا الملجأ حتى تخرجت منه واسمها لوسي فتحي.. أريد أن أعرف كيف دخلت هذا الملجأ.. وفي المقابل سأدفع المائتي ألف جنيه.

ظهر التردد على المديرة ثم قالت في لهجة عملية بعينين ضيقتين : إن قوانين الملجأ تمنع إفشاء مثل هذه المعلومات.. ولكن أظن أن فتيات الملجأ بحاجة أكثر إلى ما تعرضه من مال لتحسين أحوالهم وإحساسهم بالاحتياج واليتم.

وغابت دقائق ثم عادت ومعها ملف أزرق باهت تآكلت حوافه.. وراحت تقلب فيه في صمت.. ثم رفعت عيناها إلى ماجد وقالت له : لقد دخلت لوسي الملجأ وعمرها عامين.. وبقيت فيه حتى التحقت بالجامعة.. وكل ما هو

مذكور هنا عن اسباب دخولها الملجأ أنها كانت تسير مع والدتها.. عندما سقطت الأم ميتة بسكتة قلبية.. ولم يُستدل على أي أقارب للأم فتم دفنها وتحويل الابنة إلى الملجأ.. وهنا أطلقنا عليها اسم لوسي فتحي.

وظهر الأسف على وجه المديرة وهي تقول : هذا هو كل ما يمكنن أن أمنحه لك من معلومات فلا توجد غيرها في الملف.

ماجد : أنني بحاجة إلى معلومة أخيرة.. وهو تاريخ وفاة الأم.

المديرة : هذا سهل فهو مدون هنا مع تاريخ دخول الطفلة إلى الملجأ.

وأعطته المديرة التاريخ... فمنحها ماجد شيكا بمبلغ المائتي ألف جنيه. وانطلق من فوره إلى قسم الشاطبي.. وهو يشعر كأنه يسعى لكشف المجهول وتحدي القدر.

وكان مأمور القسم متجاوباً معه.. وكانت كل دفاتر ومحاضر القسم لا تزال بحالة سليمة..

وراح أكثر من ضابط يبحث بين أوراق المحاضر في نفس تاريخ وفاة والدة لوسي..

وهتف أحد الضباط : ها هو المحضر الذي تحرر يوم وفاة تلك المرأة.. وكل ما هو مذكور به انها كانت تحمل معها شهادة وفاة باسم عزت فريد.. وأظن أنه زوجها.. والشهادة كانت محررة باللغة الانجليزية.. أما هي فكانت تحمل جواز سفر.. وكان الجواز يحمل تأشيرة عودة إلى مصر قبل الحادث بأيام قليلة.

سأله ماجد في لهفة : وهل كانت تلك المرأة قادمة من استراليا ؟

أجاب الضابط مندهشا : نعم.. هذا مذكور في المحضر.

عاد ماجد يسأله وقلبه يدق مثل قرع الطبول : وهل كان اسم هذه المرأة هو سلوى عبد الحميد السيد ؟

ــ نعم.. هذا هو اسمها بالضبط. أجاب الضابط مندهشا.

شعر ماجد أنه يترنح.. يكاد يفقد وعيه من الذهول والاكتشاف المفاجئ.. ها هو اللغز قد أماط اللثام عن وجهه أخيراً.. وها هو القدر يضحك ضحكته الأخيرة.

لم تكن لوسي غير ابنة حبيبته وطيفه القديم.. سلوى.

« العودة »

ظهرت تفاصيل الماضي واضحة تماما أمام عيني ماجد..

سافرت سلوى مع زوجها إلى استراليا.. وهناك أنجبت منه طفلة.. وبعد قليل مات الزوج.. وشعرت سلوى بالغربة في البلاد البعيدة.. فعادت إلى مصر مع طفلتها.. ولكنها لم تعد إلى القاهرة حتى تعيش مع أقاربها مرة أخرى.. بل ذهبت إلى الاسكندرية لتبدأ حياتها من جديد.. ولعلها كانت تعمل في أي مكان لتنفق على نفسها وابنتها.

وماتت سلوى لأن قلبها الرقيق لم يتحمل كل تلك الأحزان التي صادفتها في حياتها.. ولم يكن للطفلة الصغيرة أقارب يحتضونها.. فذهبوا بها إلى ملجأ للأيتام كأنما التاريخ يصر على أن يعيد نفسه.. وكأنما القدر يصر على وشم تلك الأسرة الحزينة بمشاعر اليتم والحرمان.

وفي الملجأ كبرت لوسي تحاصرها مشاعر اليتم والحرمان.. وباصرار أكملت تعليمها حتى التحقت بالجامعة ثم تخرجت منها كأنها تتحدى قدرها السيِّىء باصرار عجيب.

ثم قابلته في مصادفة عجيبة، كانت بترتيب من القدر.. فيا له من قدر يصر على أن يسيّر حياته كيفما يشاء.

أخفى ماجد عينيه وهو يقود سيارته عائداً إلى القاهرة.. وشعر كأن غمامة تسبح أمام وجهه.. ورفع رأسه بعينين مليئتين بالدموع والأحزان.. وتساءل مذهولاً.. هل كانت لوسي تعرف الحقيقة.. حقيقة أنها ابنة الإنسانة التي أحبها في الماضي.. هل اكتشفت ذلك.. هل دلها قلبها.. هل كان ذلك السبب في أنها لم تكن تستطيع أن تمنحه أكثر من مشاعر الابنة لأبيها ؟

هل كان هو بالنسبة لها الرجل الذي أحب أمها.. وكان يمكن أن يكون والدها لولا القدر ؟

ولكن ما قيمة ذلك الاكتشاف الآن.. وقد اختفت لوسي من حياته إلى الأبد..

اختفت دون أن تعطيه الفرصة ليمنحها حنان الأب

وحبه.. ودون أن يخفف عنها مشاعر اليتم والحرمان.
واتجه إلى شركته وهو يشعر أنه مساق إلى نهايته.
كان لا يزال يشعر أنه غائب عن وعيه.. شخص آخر بداخله يتحرك ويتصرف.
وما كاد يفتح باب مكتبه ويدخل حتى فوجئ بها تنتظره..
وقف كالمشلول.. لا يكاد يصدق.. ونهضت هي ببطء ودموعها تنسال من عينيها.. قالت له بصوت مهزوم في توسل : لم يكن هناك أي مكان ألجأ إليه.. ولهذا عدت إليك فسامحني.
هتف بفرحة طاغية : لا أكاد أصدق عيني.. يا ابنتي الحبيبة.
أصابها ذهول لمسمع كلمته.. هتفت بلا وعي : أبي.
فتح ذراعيه لها فارتمت بين أحضانه الدافئة.. أجهشت ببكاء غزير..
قال لها في حنان كأنه يحميها من كل أخطار الدنيا : لن أسمح للحزن بأن يتسلل إلى قلبك مرة أخرى يا ابنتي الغالية.

قالت باكية وهي تتملى من ملامحه كأنها لا تشبع منها أبداً : تمنيت من الله أن يمنحني أباً مثلك.. ولهذا لم أكن أستطع أن أمنحك أي مشاعر أخرى غير مشاعر الابنة.

قال لها في حزن : كنت تعرفين الحقيقة.

قالت في أسى : عرفتها يوم صارحتني أنك أحببت أخرى تشبهني تمام الشبه.. حتى اسمها كان سلوى.. أدركت حقيقة من كنت تحب.. لأنني لا زلت أحتفظ بصورة أمي.. أعطوها لي وأنا صغيرة فاحتفظت بها للآن.

أخرجت له صورة حبيبته من حقيبتها.. كانت الصورة تطابق ملامح لوسي تماما.. وقالت له بحزن : لولا هذه الصورة ما اكتشفت الحقيقة أبداً. تناول منها الصورة وقال ضاحكاً من بين دموعه : وصورة والديك الزائفين ؟

لمعت عيناها بضحكة حزينة وقالت : صورة زائفة كنت أحتفظ بها لأريها للأخرين عندما يسألون عن والدي.. كنت أخشى أن يطّلع الناس على مشاعر يتمي ووحدتي.

همس يقول لها : منذ الآن لن تضطري للكذب أو الهرب من المجهول.. منذ الآن سيصير لك بيت ومال

وأب.. لن تشعري باليتم بعد ذلك أبداً.

همست له : أشعر في قربك بحنان وراحة.. لا تبخل عليّ بأبوتك.

قال : سأكون لك نعم الأب.. وستذهبين لتعيشي معي في بيتي.

قالت في حنان : أنا قادمة من بيتك حالاً.. كنت أشعر بالذنب الشديد.. وذهبت إلى زوجتك لأخبرها بالحقيقة.. حقيقة علاقتنا وحبك القديم.. طلبت منها ألا تغضب منك أو تسيىء الظن بك.. طلبت منها أن تحبك أكثر لتنسى الأخرى.. أن تمنحك من فيض مشاعرها.. انها انسانة طيبة حنون.. لن تجد في هذا العالم كله من يحبك مثلها.

قال في حنان : الآن فقط أستطيع أن أحبها دون مشاركة من ذكرى ماضية.. ذهب الماضي ولن يعود.. وجودك في حياتي سيجعل هذا الماضي الحزين مستقبلاً سعيداً..

همست له : عمر ابنك في انتظارك فقد اشتاق إليك كثيراً.. سنشتري له لعباً كثيرةً.. ولكن المهم ألا تبتعد عنه بعد الآن.

قال لها : لن أخشى عليه وأنت قريبة منه.

قالت له : سأحل محل ممرضته.. لن أجد من هو أولى من أخي بالرعاية.. سيكون هو أخي الذي تمنيته.. وأنت ستكون أبي الذي طالما اشتقت إلى حنانه.. أما نادية فستكون أختي الكبيرة التي تفتح قلبها لمشاعري ومتاعبي وأحاسيسي.. ستكونون الأسرة التي حرمني القدر منها.. ثم دلني عليها في النهاية.

همس ماجد يقول : ما أعجب هذا القدر.. من يستطيع أن يفهم القدر ؟

هتفت لوسي في فرحة : ماذا تنتظر يا أبي.. إن هناك من ينتظرنا.. هيا بنا.

وكانت فرحة نادية بعودة زوجها ووالد طفلها لا توصف..

ولأول مرة شعرت أن ذلك الطيف القديم الساكن في عيني زوجها وقلبه قد غادره إلى الأبد.. وأنه لم يعد أحد يشاركها مشاعر زوجها.. بعد أن لعب القدر لعبته الأخيرة.

الحب والقدر

كان القدر يلعب معه لعبة عجيبة.. وطيف الحبيبة القديمة يراوده ويعيش بداخله دون أن تطرده يد الزمن..

وحتى عندما تزوج بأخرى.. كان الطيف الأول لا يزال يسكن قلبه.. والذكرى ترفض أن ترحل.

وفجأة تتجدد الذكرى القديمة.. ويتجسد الطيف القديم على نفس الصورة كياناً شاباً رائعاً.. لم يكن له أي اثر في تلك السنوات الماضية.. وكان القدر يمارس لعبة غير مفهومة.. يأخذ ثم يمنح.. وهو واثق ان المنح هذه المرة لي نوعاً من الأخذ..

فكيف ستنتهي لعبة القدر هذه المرة ؟

دار الجيل
بيروت